

سؤال الحضارة

قوام التكليف تقابل إرادتين: إرادة الله، وإرادة البشر

﴿ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ ﴾ [الأنفال:٦٧]

ويكاد يكون مرد الصراع في القرآن كله حول هاتين الإرادتين!

﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ (٢٠) وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ (٢١) ﴾ [القيامة: ٢٠-٢١]

تأليف

محب بن مسكين

سؤال الحضارة

-السؤال الأخطر في الملف الإلحادي-.

الافتتان بالمظهر المادي

ربما يكون سؤال الحضارة هو أصل الإلحاد العربي على الإطلاق.

لماذا نحن متخلفون ماديًا وغيرنا متقدم؟

لماذا نحن في القاع وغيرنا في القمة؟

لماذا تأخرنا بينما سبقنا غيرنا بقرونٍ ثقافية؟

هذا هو سؤال الحضارة!

إنه السؤال الأصعب في تاريخ الدعوة.

بل كم عانى الأنبياء في مواجهة هذا السؤال.

وكم تفّلت الأتباع وكم بخعت أنفس الرسل حزنًا على كثرة تفّلت أممهم.

فسؤال الحضارة هو أصل كفر الأمم عبر العصور.

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴾ [مريم:٧٣] .

يقول الباحث إبراهيم السكران –حفظه الله–: "حين استلم قوم عاد زمام الخلافة في الأرض كما قال تعالى عنهم: ﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾ [الأعراف:٦٩].

فعمروا جنوب الجزيرة العربية في منطقة الأحقاف وإرم، وكانوا يتمتعون بقوةٍ ماديةٍ مذهلةٍ فكانت لهم بنية جسدية استثنائية، وكثافة سكانية، مكنتهم من الترف المعيشي وفنون العمارة، والانفراد بالجبروت العسكري على العالم، وهذه القوة المادية ورطتهم في الغرور وصرفتهم عن الإيمان بلقاء الله والاستسلام للوحي، كما يحكي تعالى عن قوتهم الجسدية في سورة الأعراف: ﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ﴾ [الأعراف:٦٩].

ويؤكد تعالى بنيتهم الجسدية الاستثنائية في سورة الفجر: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴾ [الفجر: ٦-٨].

ويصف القرآن قصورهم ومنشآتهم الضخمة وبطشهم العسكري في سورة الشعراء فيقول سبحانه: ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ۝١٢٨ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ۝١٢٩ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾ [الشعراء: ١٢٨-١٣٠].

هذه المظاهر المادية حجبت عيونهم بعصابة الزهو، حتى تساءلوا أمام نبي الله ذلك السؤال المتنفش بالغرور المجوف فقالوا بكل غطرسةٍ سياسية: "من أشد منا قوة؟"

كما حكى الله سبحانه مقالتهم هذه: ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ [فصلت:١٥].

بالله عليك.. أعد التأمل في تساؤلهم المغرور: ﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾، ثم انظر إلى جواب جبار السموات والأرض بعظمته الإلهية إذ يرد عليهم قائلًا سبحانه: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ [فصلت:١٥].

إمكانياتهم المادية طاشت بهم فوق طواويس الغرور، فألقو رزانة الإيمان وكذبوا بلقاء الله بكل بجاحة، وقالوا مستهترين: ﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ۝٣٥ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴾ [المؤمنون: ٣٥-٣٦].

وكانت "الطبقة المترفة" في قوم عاد -كما هو قانون التاريخ- أشد المعارضين لدعوة الوحي، كما قال تعالى عنهم في سورة المؤمنون: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴾ [المؤمنون:٣٣].

ولم تغرب شمس عاد في كارثة أعاصيرها المعروفة التي دامت أسبوعًا، إلا وكانت حضارة المدائن في الحجر شمال الجزيرة العربية قد بزغت، وأعادت مسلسل الغرور بمظاهر القوة المدنية

المادية.

فقد تمتعت ثمود أيضًا بالخلافة في الأرض بعد قوم عاد، وأوغلوا هم أيضًا في فنون النحت والعمارة، وبعض آثارهم الباقية اليوم شاهدة بما غاب من مدنيتهم، وقد قال تعالى عن خلافتهم وقصورهم: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ [الأعراف:٧٤].

وقال تعالى في سورة الشعراء واصفًا رفاههم ونحتهم: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ﴾ [الشعراء: ١٤٦-١٤٩].

وكان إبداعهم في نحت الجبال يوفر لهم استقرارًا أمنيًا كما أشار تعالى في سورة الحجر بقوله: ﴿وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ﴾ [الحجر:٨٢].

وقال تعالى مشيرًا إلى عمارتهم للدنيا: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾ [هود:٦١].

فغرتهم إمكانياتهم المادية، وتفوقهم المدني على مجايليهم، ونظروا بمعيار المظاهر، فجحدوا الوحي الذي أتى به نبي الله صالح عليه السلام، واستنكروا أصلًا أن يختص من لم يتميز بمظهر مادي بالوحي والنبوة، كما قال تعالى في سورة القمر: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ [القمر: ٢٣-٢٥].

ولكن.. وكما هي السنة الكونية وقانون التاريخ، فقد كان المتبنون لمضايقة نبي الله صالح هم الكبراء وأصحاب المظاهر المادية، وكان أنصاره ضعفاء الناس، كما ينقل الله لنا هذا الحوار في سورة الأعراف: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ

ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٧٥-٧٦]"[١].

فما ابتلي البشر عبر العصور وعبر تاريخ النبوات ببلاءٍ أكثر من الافتتان بالقوة المادية للمنافس.

إن سؤال الحضارة جوابه معنى التكليف.

ومقتضاه انفكاك الجهة بين المبدأ الديني وبين الرصيد البنكي.

فلا يلزم من زيادة رصيدك البنكي أو انتفاخ كرشك أنك على الحق.

ولا يلزم من نحافة خصمك أنه على الباطل!

لكن هكذا تتصرف العقول وهكذا تتخيل.

بل إن الدين ينظر إلى العالم المادي وتكدس الثروات والتقدم التقاني باعتبارهم وسائل لا غايات.

وما قام الدين إلا لتحويل سؤال الحضارة من غاية إلى وسيلة.

﴿ ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ ﴾ [الرعد:٢٦]

فالإسلام يحذر بانتظام من الركون إلى الحياة الدنيا والاطمئنان إليها والفرح بما عندنا.

﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ﴾ [الأنعام:٤٤].

وما كان الانبهار بالعالم المادي والزهد في الوحي إلا أصل كفر الكافرين عبر العصور.

﴿ إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةٗ لَّهَا لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا ﴾ [الكهف:٧].

بل إن المؤمن الحق هو الذي يترك الربح المادي والاقتصاد لمجرد سماع نداء الصلاة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ

---

(١) من وحي كتاب مآلات الخطاب المدني، إبراهيم السكران، بتصرف.

تَعۡلَمُونَ ﴾ [الجمعة:٩].

فما الدنيا كلها إلا كشاةٍ أسك ليس لها عند الله ثمن -كما ورد في الحديث-.

وهنا يتضائل سؤال الحضارة ويخبت، والعاقل مَن أوقف المادة لنفع دينه وتركها في غير ذلك!

مؤمنٌ وكافر

مشكلة سؤال الحضارة أنه قسّم البشر في غايتهم الوجودية إلى قسمين متمايزين منذ البدء.

فقِسمٌ منهما غايته الدنيوية المادية -مركزية المادة والحضارة وعمارة الأرض-، وقِسمٌ آخر غايته العبودية والتزكية الإيمانية -مركزية الآخرة-.

وكل قِسمٍ صار يُطوع معطيات القِسم الآخر لمركزيته هو.

فالدنيويون يطوِّعون النصوص الشرعية ويحاربون التراث ويقاضون الأصوليين، ويصرخون صباح مساء أن الدين ما جاء إلا لعمارة الأرض ويُكثرون من حديث: "لو قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فليزرعها".

أما القسم الآخر فيُطوع المادة لعبودية الله. ولا يبتغي منها إلا ما يُصلح هذه العبودية، وكل ما خرج عن العبودية فهو دائرٌ بين الترف والحرام!

فهرم الأولويات عند المؤمن هو عمارة النفوس بالله، بتألهه والتعلق به، والتجرد لمراده.

أما هرم الأولويات عند المادي هو إشباع الشهوات وتحقيق أقصى استغلال ممكن للموارد.

يقول الباحث إبراهيم السكران حفظه الله: " ما هي وظيفة الإنسان؟ هذا هو السؤال/ المدخل الذي تعود إليه الاختلافات الجوهرية للاتجاهات الفكرية، وهناك اتجاهان رئيسيان في الجواب على هذا السؤال:

أولهما هو "الاتجاه المدني" ويرى أن وظيفة خلق الإنسان هي "العمارة" وكل ماسوى ذلك وسيلة لها.

فالوحي والشرائع والعبادات إنما هي وسائل لتحقيق العمارة والحضارة والمدنية، فالعمارة

هي الغاية الجوهرية والأولوية الرئيسية للإنسان، وانبنى على ذلك أن اشتغل هذا الخطاب بقضية التمدن وتوجيه كافة المعطيات الأخرى إليها والتسامح في كل ماسواها، ومن ثم تقييم المجتمعات والثقافات والشخصيات بحسب منزلتها في هذه "المدنية" الدنيوية.

و"المدنية" بحسب هذا الاتجاه مفهوم شامل يدخل فيها كل ما يدفع باتجاه تحقيق الرفاه البشري وسعادة الجنس الإنساني في كافة ميادين الحياة الدنيوية، والتقدم في العلوم الفلسفية والإنسانية والطبيعية والفنون، ونحوها.

أما الاتجاه الثاني وهو "الاتجاه الشرعي" فيرى أن وظيفة الإنسان هي "العبودية" بمعنى أن الله خلق الإنسان وأرسل الرسل وأنزل الكتب لتدل الناس على الله وعبادته، وبيان دقائق ما ينبغي له سبحانه وما لا ينبغي في معاملته جل وعلا، وبيان قواعد تنظيم حقوق العباد، وأن كل ما في هذه الدنيا إنما هو متاع ولعب ولهو، فيجب أن يستعان بما يحتاج منها على عبودية الله، وكل ما لم يعن على عبودية الله ولم يؤد إلى هذا الغرض فهو دائرٌ بين مرتبتين لا ثالث لهما: إما محرم يجب الكف عنه، وإما فضول يشرع الزهد فيه.

فالعمارة والحضارة والمدنية مجرد وسيلة لإظهار الدين وإقامة الشعائر والشرائع، فلا يحمد من هذه المدنية إلا ما حقق هذه الغاية.

وحين تكلّم الإمام ابن تيمية عن "وظيفة الدولة" حسب التصور الإسلامي في كتابه "السياسة الشرعية" قدم تلخيصًا هامًا يكشف وسيلية المدنية وكونها مرتبطة بالغاية الدينية، كما يقول الإمام ابن تيمية:

(**فالمقصود الواجب بالولايات**:

١ – إصلاح دين الخلق الذي متى فاتهم خسروا خسرانًا مبينًا، ولم ينفعهم ما نعموا به في الدنيا.

٢ –إصلاح ما لا يقوم الدين إلا به من أمر دنياهم).

و"العبودية" بحسب هذا الاتجاه نظام من الشُّعَب التدريجية الشاملة أعلاها قول لاإله الا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، فتبتدئ بإفراد الله وتجريد القلب له ويليها الفرائض العينية ثم الفروض الكفائية التي يتحقق بها نفع الناس في مصالحهم العامة.

واذا تزاحمت شعبتان من شعب العبودية فلا يقدم مايتعلق بالشأن المدني مطلقًا، بل ثمة قواعد شرعية دقيقة في المفاضلة والموازنة بين مراتب الاهتمامات والأعمال والشؤون العامة، ككون رعاية الفضيلة مقدمة على الحرية الفنية، وتقديم الفرض العيني على الكفائي، وتقديم النفع المتعدي على النفع الخاص، وتقديم الواجب على المندوب، ونحو ذلك.

ولذلك فإن جمهور الأعمال العبادية المحضة تندرج في "الأحكام التكليفية" باعتبارها الصورة النهائية للمراد الإلهي، وجمهور الأعمال المدنية الدنيوية تندرج في "الأحكام الوضعية" كالسبب والعلة والشرط والمانع باعتبارها وسيلة للحكم التكليفي.

ومن ثم ينبني على هذه الرؤية تقييم المجتمعات والثقافات والشخصيات بحسب منزلتها في هذه "العبودية".

وتفريعًا على اختلاف هذين الاتجاهين في تحديد الوسيلة والغاية انبنت أكثر الفروق الهائلة والتفاصيل اللانهائية من الآثار، واستتبع ذلك تفاوتًا كبيرًا في المواقف، فكل قضيةٍ فكريةٍ يختلف فيها الناس تجد فريقًا لحظ أثر هذا الموقف على العبودية والفضيلة فاتخذ موقفا معينا، بينما الفريق الآخر لحظ علاقة هذه القضية بالحضارة والمدنية فاتخذ موقفًا مغايرًا، فكل فريقٍ معني بغايته ومقصده النهائي".

وهنا للمرء أن يتسائل: يا ترى مع أي فريقٍ تأتي نصوص الوحي وتنحاز؟

وأي إجابةٍ هي الصحيح الآكد؟

هل عمارة الأرض هي الغاية والعبودية جائت لضبط السلوك الاجتماعي أم أن العبودية هي الغاية وعمارة الارض هي وسيلة لا أكثر؟

يجيب إبراهيم السكران قائلًا: "الحقيقة أن كتاب الله سبحانه وتعالى لم يجعل هذه القضية

عائمة أو محتملة أو نسبية، بل حسمها بشكلٍ يقيني واضحٍ صريح. وكشف الغاية من خلق الإنسان بلغةٍ حاصرةٍ فقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[الذاريات: ٥٦]. وبيّن سبحانه أنه إنما بدأ خلق الإنسان في هذه الدنيا ثم بعثه بعد موته ليحاسبه على هذه الغاية، وهي القيام بالعبودية كما قال سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ﴾ [يونس:٤].

وفي كثيرٍ من المواضع ينبه سبحانه وتعالى بين ثنايا الآيات على أن وظيفة الخلق وغايته إنما هي ابتلاء الناس في هذه العبودية كما قال سبحانه: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴾ [الملك:٢]. وحسن العمل في هذه الآية ونظائرها هو الإيمان والعمل الصالح على حسب درجاته الشرعية.

ولو كانت عمارة الأرض بالحضارة والتمدن والعلوم الدنيوية هي المقصود الأولوي بحسن العمل لما أرسل الله الرسل في التاريخ البشري أصلًا، لأن الله سبحانه قد أثبت تميز تلك الأمم أصلًا في عمارة الأرض وعمق علمها بالدنيا، كما قال تعالى عن الأمم السابقة: ﴿ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا ﴾ [الروم:٩]. وقال عن علمهم المدني: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [الروم:٧].

وبيّن سبحانه وتعالى وظيفة النبوات والكتب السماوية والشرائع وأنها كلها تهدف لتأكيد عبادة الله والاستعداد للحياة المستقبلية بعد الموت، وليست المنافسة العالمية في المدنية والحضارة الدنيوية، كما قال تعالى عن وظيفة الرسل: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ [النحل:٣٦]

وذكر سبحانه السؤال الإلهي عن تحقيق هذه الغاية فقال سبحانه: ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ ﴾ [الأنعام:١٣٠].

وقال سبحانه مبينًا وظيفة الشرائع: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ [البينة:٥].

وغير ذلك كثيرٌ من محكمات الوحي التي كشفت بشكلٍ حاسمٍ غاية خلق الإنسان، والذي يعنينا هاهنا ذكر بعض الشواهد لا استقراؤها".

ويستطرد إبراهيم السكران في توضيح انفكاك الجهة بين التقدم المدني والغاية الشرعية فيقول: " الله تعالى ضرب لنا المثل بأممٍ كثيرةٍ أبدعت في "العمارة المادية" ومع ذلك عرض الله تعالى أخبارها في سياق الذم لما أفلست في "العمارة الإيمانية" كما قال تعالى:﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا ﴾ [الروم:٩].

وحين أرسل الله موسى إلى المجتمع المصري المتقدم لم يقل له أيقظ قومك ليستفيدوا من الحضارة المصرية، بل أرسله لينورّهم بالوحي من ظلمات حضارتهم، كما قال تعالى:﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ [إبراهيم:٥].

بل إن الله سبحانه وتعالى فضّل بني اسرائيل بما معهم من العلوم الإلهية على الفراعنة بما معهم من الحضارة، كما قال تعالى:﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَفَضَّلْنَـٰهُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الجاثية:١٦].

فإذا تأمل القارئ هذا الموضع وكيف كان سبب تفضيل بني إسرائيل أنوار النبوة والكتاب، وكيف لم تفلح حضارة الفراعنة في إخراجهم من الظلمات، استبان له "الميزان الإلهي" لتقييم المجتمعات والثقافات والشخصيات والحضارات والمدنيات، وميزان المسلم تبعٌ لميزان الله جل وعلا.

والنبي -صلى الله عليه وسلم- بعث إلى الناس وفي عصره أربع إمبراطوريات اقتسمت العالم: الرومانية والفارسية والهندية والصينية، فالأولى امتدت لأوروبا والثانية حاضرة في الشرق الأدنى، والأخريان شبه معزولتين، وكانت معاهد العلوم فيها شامخة، فضلًا عن مخزونٍ حضاريٍ متراكمٍ من الحضارة الإغريقية والمصرية.

بل إن العلوم المدنية قبيل مبعثه -صلى الله عليه وسلم- بلغت شأوًا عاليًا في دقائق المعقولات

كقوانين العقل الجوهرية كقانون الهوية والتناقض والثالث المرفوع، ونظرية الدولة وتقسيم أشكال اسناد السلطة، ودقائق الهندسة وحساب الدوال الرياضية، وفنون العمارة والمسرح والشعر والأدب، وأصول الطب، والمسافات الفلكية، وغيرها كثير وإنما هذه نماذج تكشف مستويات البحث المدني.

ومع ذلك كله فإن الله سبحانه وتعالى لما بعث نبيه في جزيرة العرب لم يبعثه ليقول للناس: يا معشر العرب أنتم تعانون من التخلف المدني ويجب عليكم أن تتجاوزوا جفوة عروبتكم وتتعلموا من الأمم المتقدمة، ولم يقل لهم: يجب عليكم أولًا أن تقفوا موقف التلميذ أمام علوم المنطق والطب والفلك والفلسفة ونحوها ثم تدعوا الناس،، ولم يقل لهم: اعرفوا قدر أنفسكم أمام الحضارات الأخرى، ولم يقل لهم: يجب أن تشاركوا الأسرة الدولية في سعادة الجنس الإنساني عبر الإبداع الابستمولوجي!

بل إن الله أخبر نبيه بعكس ذلك تمامًا، فقد أخبر نبيه عن القيمة المنحطة في ميزان الله لكل تلك المدنيات التي عاصرت بعثة النبي -صلى الله عليه وسلم-، ووصفها القرآن بالضلال بكل ماتضمنته قوتهم وعلومهم وفنونهم ومدنيتهم، بل وأخبرنا تعالى أنه يبغضهم ويمقتهم ويكرههم سبحانه وتعالى، سواءً كانوا أدباء العرب، أم فلاسفة أثينا، أم أطباء الصين، أم حكماء الهند، أم غيرهم.

كما روى الإمام مسلمٌ في صحيحه من حديث عياض المجاشعي أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال ذات يومٍ في خطبته: «**إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم، عربهم وعجمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب، وقال: إنما بعثتك لأبتليك وأبتلى بك**».

فمع كل مايوجد على هذه الأرض من العلوم المدنية والفلاسفة والأدباء فإنهم لا وزن لهم في ميزان الله سبحانه وتعالى سواءٌ في ذلك عربهم وعجمهم، ولم يستثن إلا طائفةً قليلةً من الناس بسبب ما كان لديهم من بقايا النبوات وبعض من أثارة الوحي. فبقايا النبوات وما تضمنته من العلوم والمعارف الإلهية هي نوافذ التنوير الحقيقي في الأرض، وليس التنوير هو الإغراق الفلسفي

والمدني، وشاهدُ هذه الخطبة النبوية في كتاب الله قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ [إبراهيم:١] .

فحَكم الله تعالى على كل البشرية قبيل مبعثه –صلى الله عليه وسلم– بأنها في "ظلمات" وأن التنوير الذي تحتاجه هو "نور الوحي" كما يقول تعالى في موضعٍ آخر: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ﴾ [الحديد:٩].

وأكّد تعالى في موضعٍ آخر أن التنوير الحقيقي هو نور الوحي كما قال تعالى: ﴿يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ﴾ [المائدة:١٦].

وسيبقى من أعرض عن هذا الوحي مرتكسًا في ظلماته مهما أوتي من العلوم المدنية، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمّٞ وَبُكۡمٞ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [الأنعام:٣٩].

والى هذا التنوير المستمد من الوحي أشار الامام ابن تيمية في قوله: «وعند المسلمين من "العلوم الإلهية" الموروثة عن خاتم المرسلين ما ملأ العالم نورًا وهدىً»[(١)] .

وقد نفخ النبي –صلى الله عليه وسلم– في أصحابه الشموخ بـ"العلوم الإلهية" فوق المدنيات الصغيرة بالنسبة لجلال المعرفة الإلهية، ونبّه أصحابه إلى التنوير الحقيقي وهو نور الوحي، وربى أصحابه على أن تلك المجتمعات المتمدنة يحتاجونكم أضعاف ما تحتاجونهم، فهم إنما يملكون الوسائل وأنتم تعرفون الغايات، وشتان بين منزلة الوسيلة والغاية".

ومن أجل ذلك لم ينبهر الصحابة بالحضارات التي كانت في وقتهم!

بل كانوا يقولون مرارًا وتكرارًا أنهم جاؤوا لإنقاذ هذه الحضارات من جاهليتها.

انظر إلى الصحابي الجليل ربعي بن عامر –رضي الله عنه– حين دخل على رستم قائد الفرس وقد زيَّنوا مجلسه بالنَّمارق المذهَّبة، والزَّرابي الحرير، وأظهر اليواقيت واللآلئ الثمينة والزينة

---

(١) الفتاوى ٢/ ٨٤.

العظيمة، وعليه تاجه وغير ذلك من الأمتعة الثمينة، وقد جلس على سرير من ذهب. ودخل ربعي بثياب صفيقة وسيف وترس وفرس قصيرة، ولم يزل راكبَها حتى داس بها على طرف البساط، ثم نزل وربطها ببعض تلك الوسائد، وأقبل وعليه سلاحُه ودرعه وبيضتُه على رأسه. فقالوا له: ضع سلاحك فقال: إني لم آتِكم وإِنّما جئتكم حين دعوتموني، فإنما تركتموني هكذا وإِلا رجعت. فقال رستم: إئذنوا له، فأقبل يتوكأ على رمحه فوق النَّمارق فخرَّق عامتها، فقالوا له: ما جاء بكم؟ فقال: الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضِيق الدنيا إلى سعَتَها، ومن جَوْر الأديان إلى عدل الإِسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه.

انظر إلى احتقاره لزينة الكافر وبهرجه

انظر إلى اعتزازه بجواب الأسئلة الوجودية الكبرى التي يحملها.

والتي تنخرق أمامها كل زينة الدنيا ومتعها!

فنجاح الصحابة الآكد أنهم لم يكونوا يعانون من عقدة النقص التي يعاني منها المعاصرون – إلا مَن رحم ربي–، بل كانت عزتهم في امتلاكهم أجوبة الأسئلة الوجودية الكبرى، وتأكيدهم على تفاهة الحياة الدنيا وحقارتها مقارنةً بالنعيم الأبدي!

فلا يفرح الكافر بأكثر من أن يُبهرك بنمارقه المذهبة وزينته العظيمة، فالانكسار لفتنته يُنهي المعركة قبل أن تبدأ!

ولذلك لم يفت ربعي بن عامر جهل رستم بأعظم مطلوب وهو الله سبحانه فتحولت كل زينته إلى صورةٍ بهيميةٍ بلا قيمةٍ ولا غايةٍ كما يصف القرآن الكريم ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ﴾ [محمد:١٢].

فإجابة الأسئلة الوجودية الكبرى ترقى بمالكها وتسقط بمفتقدها.

وعند هذه النقطة لابد من إلماحةٍ هامة ذكرها إبراهيم السكران وهي أن: "هذا الانتقاص

والاستعلاء الشرعي على المنجزات الحضارية والفنية قبيل مبعثه -صلى الله عليه وسلم- ليس ذمًا لتلك المنجزات لذاتها، وإنما لأن أصحابها لم يتزكوا ويتنوروا بالوحي والعلوم الإلهية، فلم يصلوا إلى الرقي والسمو الحقيقي وهو مرتبة العبودية، وإنما بقوا في حضيض المنافسة الدنيوية.

هذا الموقف النبوي من أدق ما يبين أن الانتفاع بما لدى الغير لا يقتضي الانبهار بهم، وأن الذم لواقعهم لا يتعارض مع الاستفادة من الحكمة التي هي ضالة المؤمن".

وهنا قد يطفو على السطح سؤالٌ جوهري يحمل إلماحةً أهم وهو: ما علاقة هذا الطرح ككل بالملف الإلحادي عمومًا؟

فهذا الطرح قد يُجدي في الملف العلماني أو ملف العولمة!

وجواب ذلك أن: الإيمان بمركزية القيم الغربية وعالمية مُثُلهَم هو أصل شبهات الملحدين وأصل استشكالاتهم.

ولبيان ذلك نقول أنه: قد تتعارض نصوص التراث الإسلامي مع نصوص الدفن مثلًا لدى الهندوس ومع نصوص الزفاف لدى بعض البلدان الأفريقية، ومع نصوص التطهر أو الغذاء ونوعيته مثلًا لدى المدن الآسيوية الساحلية، لكن أحدًا من هذه التعارضات لن يلقى مشكلةً لدى الداخل الإلحادي.

المشكلة هي أن تتعارض نصوص التراث الإسلامي مع أيٍ من معطيات الغرب العلماني. هنا تصير المشكلة وهنا تدار المنتديات والمحاضرات ويُقدم هذا معذرته وذاك تأويله وهؤلاء منتجهم الفكري الذي يعالج هذه الشبهة الإشكالية.

لماذا يا ترى حين تعارض النص مع المعطى الغربي صارت مشكلة؟

لماذا يا ترى هنا وهنا فقط يتبجح الملحد ويعتبرها شبهته ويبدأ في إدارة رحى طاحون كهنوته التبشيري بالإلحاد، ويبدأ في المقارنة بين التراث الإسلامي والواقع الغربي؟

هنا القضية ليست في وجود تعارض، فالتعارض حتمي وإلا ما جائت الشرائع للتصحيح والضبط.

لكن القضية هي في اعتبار أن الغرب هو المركز وأن المركزية هي الغرب وأن قيمه لابد أن تكون عالمية، وتراثه لابد أن يكون أصلًا وغيره تبع!

إنها ببساطة ثقافة الغالب لا أكثر!

فإذا انزاح الغرب عن المركز كما كان حاله قبل قرنٍ ونصف من الزمان أصبحت قيمه موضع تندر لا تتبع وتسخيف لا إمعية وتحوير!

فالقضية هي انكسار الشباب بطبيعته للغالب واستسلامه لمعطى الآخر طالما كان أقوى.

يذكر الإعلامي السوري فيصل القاسم في برنامجه "الاتجاه المعاكس" أن الشرطة الفرنسية نما إلى علمها قيام أحد المسلمين في فرنسا بالجمع بين زوجتين في آنٍ واحد، وهذا مُحرم في الدستور الفرنسي فما كان من الشرطة إلا أن تتوجه للقبض على الزوج في شقته وبالفعل وجدوا الزوجتين، لكن الرجل المسلم أخبرهم أن الأولى زوجته والثانية عشيقته وهنا أُسقط في أيديهم واعتذروا له وتركوه وذهبوا.

إن هذه القصة تُنبيء عن تناقض عقلي في قمة السخف فأن تقبل بتعدد العشيقات والزنا بهن وترفض الزواج الطاهر بامرأةٍ ثانية، وتجعل من ذلك دستورًا وتشريعًا يسير الناس عليه ويرتضونه بينهم لهو جاهلية وسخف عقلي لا يُتصور.

هذا السخف لو كان في ثقافةٍ هنديةٍ مثلًا لقام الملحد بتسخيفه أي قيام، لكن أن يصدر عن المركز فحتمًا سيتنحنح الملحد ويبتلع شيئًا من ريقه حتى يُعد رده ودفاعه عن المركز الذي هو الغرب، ويُقدم في ذلك المعالجات تلو المعالجات، ويبدأ في تشغيل جهاز التأويل لديه.

فحقيقة الأمر أن الملحد يميل إلى التفهم قدر الإمكان إلى كل إشكالات الغرب.

فهو يعيش لحظة انكسار لسحر القوالب الفكرية الليبرالية في التفكير والتعاطي مع الآخر!

وما أعجب ما وصفهم الإمام الغزالي رحمه الله (توفي ٥٠٥ هجرية) حين قال: " أما بعد فإني

رأيت طائفةً يعتقدون في أنفسهم التميز عن الأتراب والنظراء، بمزيد الفطنة والذكاء، قد رفضوا وظائف الإسلام من العبادات، وإنما مصدر كفرهم سماعهم أسامي هائلة كسقراط وبقراط وأفلاطون وأرسطاطاليس وأمثالهم، وإطناب طوائف من متبعيهم وضلالهم في وصف عقولهم، وحسن أصولهم، ودقة علومهم الهندسية، والمنطقية، والطبيعية، والإلهية، واستبدادهم لفرط الذكاء والفطنة، باستخراج تلك الأمور الخفية. وحكايتهم عنهم أنهم مع رزانة عقلهم، وغزارة فضلهم، منكرون للشرائع والنحل، وجاحدون لتفاصيل الأديان والملل، ومعتقدون أنها نواميس مؤلفة، وحيل مزخرفة.

فلما قرع ذلك سمعهم، ووافق ما حكى من عقائدهم طبعهم، تجملوا باعتقاد الكفر، تحيزًا إلى غمار الفضلاء بزعمهم، وانخراطًا في سلكهم، وترفعًا عن مساعدة الجماهير والدهماء"[(١)].

فالقضية هي انبهار بالآخر وانكسار لتسلطه الفكري.

ومن صور التبعية التامة للغرب والإصابة بالفيروس الغربي كما يسميها جورج طرابيشي، أن الملحد بل والعلماني عمومًا يُسخّف شريعة إنكار المنكر، لأن الغرب يعتبرها وصاية وإقصاء!

والغرب يمتدح التعبير عن الرأي مهما كان شططه أو سوء أدبه مع الله أو رسله، في حين لا يقبل الغرب التعدي باليد على هؤلاء المعبرين عن آرائهم، فالغرب يقرر أن التعبير عن الرأي حق أما التعدي باليد فهو عدوان، والملحد بالتبعية لا يقرر غير ذلك. وهنا ملمح خطير إذ صار الحق الشخصي أعظم من الله ورسله ، فالعلماني الغربي المسكين لا يُعظم إلا نفسه ويتجاهل أعظم مطالب وجوده على الإطلاق وهي أنه عبدٌ لله، لكن باستثناء ذلك فعقليًا قد تكون الكلمة أخطر من التعدي باليد، بل هذا هو الأغلب والأشمل. وما يضل البشر لأفعال منحرفة بقدر ضلالهم لآراء منحرفة تسوِّغ لهم الباطل وتزينه وتقدمه على أطباقٍ من ذهب!

وهذا من دلالات جاهلية المعاصرين. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "والمحاربة

---

(١) تهافت الفلاسفة ص٤١.

باللسان في باب الدين قد تكون أنكى من المحاربة باليد"[١] .

من الصور الأخرى أيضًا: أن الغربي يقبل التمييز بين الناس على أساس الأرض وحدود جغرافيا الوطن سواءً في الخدمات الحكومية أو الولاء القلبي!

فلا غضاضة من تضييق الخناق على المهاجرين وتلقيبهم ب"مهاجرين غير شرعيين". ولا غضاضة من حرمانهم من الخدمات الحكومية وعدم مساواتهم بأبناء الوطن.

لكن أن تقول لنفس هذا الغربي لن نسوي بين الناس على أساس الدين، فهنا لايقبل ذلك منك الغربي مع أنه نفس الشخص الذي سلب هذه الحقوق من "المهاجر غير الشرعي" منذ لحظات.

فانتقل معقِد الولاء والبراء من الدين إلى الوطن ومن حب الله إلى حب حبة الرمل.

إنك لو جعلت الدين أصلًا في تعاملك لصرت أمام الغربي وبالتالي الملحد العربي رمزًا للإقصاء والتخلف والرجعية!

في حين لو جعلت الوطن أصلًا في تعاملك لصرت أمامهم وطنيٌ مخلصٌ شريف ابن الأرض الطيبة!

وهنا يصبح التمييز على أساس الوطن صلاحًا وإخلاصًا وعلى أساس الشريعة تخلفًا ورجعية!

إن هؤلاء لو أُشربوا حب الله لسما عندهم حب الله على حب الرمل والحدود الوهمية.

وطوال قرونٍ لم تكن ثمة إشكالية في عقوبة المرتد فلم يكن لدينا هذا الضغط على هذه النقطة وفجأة صارت هذه النقطة مشكلة ولابد لها من ردود!

وهذا لم يحدث إلا مع غلبة النموذج الليبرالي. وهنا عندما تقول للآخر أن الليبرالي يقبل بقتل الخائن والدساتير الغربية تقرر ذلك صراحةً، والمرتد يوزن بوزن الخائن لأمته فهو المفارِق لجماعته

---

(١) الصارم المسلول ٣/ ٧٣٥.

بلفظ الحديث.

ومحاربة المثل العلمانية في الغرب تؤدي الى السجن والعزل من الرئاسة والوظيفة، كما يحدث لمن يُنكر الهولوكوست.

فالغرب يُشرِّع قوانين تحمي القناعة السائدة لأغلب المواطنين في الدولة العلمانية، فقانون ضد منكري الهولوكوست Law against Holocaust denial، ينص على أن الذي ينكر محرقة اليهود على يد النازي يُعاقَب بالسجن المُشدد لمدة قد تصل إلى ٢٠ سنة كما في النمسا[(١)].

وفي التشيك تصل مدة الحبس إلى ثمان سنوات.

وهناك ١٤ دولة أوربية تُجِّرم التشكيك في جرائم النازي، وتحبس فورًا مَن يكتب كلمة واحدة تخالف القناعة السائدة لدى مواطنيها! [(٢)].

فالتشكيك في السائد في الدول العلمانية أيها الملحد يُعد جريمة، وقد حُبس مؤرخين كبار في الغرب لمجرد كلمات تشكيكية في القناعات السائدة لدى قطاع كبير من الشعب، وخير مثال على ذلك ديفيد إيرفنج David Irving وجيمس كيجسترا James Keegstra

وقد حُبس إرنست زوندل لسنوات لمجرد التشكيك في الرقم ٦ مليون[(٣)].

وتضع الدول العلمانية أيها العلماني قوانين استثنائية لتعقب حتى مَن يفكر في التشكيك في السائد "lone wolves". -تخيل!-.

حين تُحدث الملحد بهذه النبرة يهدأ روعه وتنطفي جذوة شبهته لأنك عاقَلته بمركزية ما يراه مطلقا وهو الغرب!

فالملحد يميل إلى موافقة الغرب لا أكثر.

---

(١) http://www.nachkriegsjustiz.at/service/gesetze/gs_vg_٣_١٩٤٧.php

(٢) http://en.wikipedia.org/wiki/Laws_against_Holocaust_denial

(٣) http://en.wikipedia.org/wiki/Ernst_Z%C٪٣BCndel

ولذا خلاصة الكلام كله وما نطالب به هو أن يكون الإنسان معتزًا بدينه يقر داخله تعظيم الله وتعظيم شريعته فالغرب امتلك الوسيلية لا الغاية وامتلك أجوبة ماذا نأكل لكن لم يمتلك أجوبة لماذا نأكل، ومن هنا فلا يرى المسلم الواعي أن للغرب الحق في أن يشاركه القرار في شيءٍ أو أن يتلمس منه حكمة شيءٍ!

﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ ﴾ [النجم: ٢٩-٣٠].

انفكاك الجهة بين التمدن والتدين

يقول إبراهيم السكران: "كان عصر النبي -صلى الله عليه وسلم- عصرًا يتميز بالبساطة والمحدودية المدنية، وقد كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يقلق على أصحابه أن يكون فارق الإمكانيات المادية بين المجتمع المسلم والكافر مثار شبهةٍ على إيمانهم، وفي تلك القصة التي نقلها عمر بن الخطاب عن الأثاث الداخلي لبيت النبي -صلى الله عليه وسلم- وموقف عمر منه ورد فعل النبي -صلى الله عليه- وسلم تجاه ذلك دلالاتٍ بليغةٍ في رسم المشهد، حيث روى البخاري ومسلم وغيرهما عن عمر بن الخطاب أنه قال: (رفعت رأسي في بيت النبي -صلى الله عليه وسلم- فوالله ما رأيت فيه شيئًا يرد البصر إلا أُهبًا ثلاثة، فلما رأيت أثر الحصير في جنبه قلت: ادع الله يا رسول الله أن يوسع على أمتك فقد وسع على فارس والروم وهم لا يعبدون الله، فاستوى النبي جالسا ثم قال: «**أفي شكٍ أنت يا بن الخطاب؟! أولئك قومٌ عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا**»)

وما أن انتهى عصر النبوة وبدأ عصر الخلافة الراشدة إلا وفُتحت الفتوح ومصرت الأمصار

وانهالت الأموال وازداد تنظيم الدولة المسلمة، واستحدثت الأجهزة الإدارية كالدواوين ونحوها.

وبعد عصر الخلافة الراشدة وتدشين الملك الأموي والملك العباسي انفجرت المعارف والعلوم العقلية والفلسفية والتجريبية، وازدهرت حركة الترجمة وبنيت لها المعاهد المتخصصة، وتنافست المؤسسات السياسية في اقتناء الكتب وعقد مجالس العلوم والمناظرات وتقريب المبدعين، وصنفت الموسوعات الكبرى في شتى الفنون والتي لا زالت مرجعًا إلى اليوم.

وهكذا فإن القارئ لتاريخ الإسلام المبكر يلاحظ كيف كان التقدم المدني يزداد مع تقدم التاريخ، فالملك العباسي أكثر تمدنًا ماديًا من الملك الأموي، والملك الأموي أكثر تمدنًا ماديًا من عصر الخلافة الراشدة، وعصر الخلافة الراشدة أكثر تمدنًا ماديًا من عصر النبوة.

فإذا جئنا نقارن هذه الصورة المتنامية في قيمتها المدنية -بحسب الواقع التاريخي- بالقيمة الدينية -بحسب الميزان الشرعي- وجدنا أن هذه المعادلة التاريخية بعكس الميزان الشرعي تمامًا، فهناك تناقض جدلي بين معدل المدنية ومعدل الخيرية، فبينما الخط البياني لمنسوب المدنية يتصاعد فإن الخط البياني لمنسوب الخيرية يتناقص.

وتراجع الخيرية كمعطىً يدخل في "محكمات الشريعة" حيث ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم ثبوتًا قطعيًا لايتطرق إليه الظن أن خير القرون قرون النبي- صلى الله عليه وسلم- وهو حديثٌ متواتر.

ومن ذلك مارواه الشيخان أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: «**خيرُ أُمتي القرنُ الذي بعثتُ فيه، ثم الذين يَلونهم، ثم الذين يَلونهم**».

والشاهد من ذلك كله أن البرهان التاريخي قد أثبت لنا أن المدنية تتصاعد، والبرهان الشرعي قد أثبت لنا أن الخيرية تتناقص، وهذه المعادلة الدقيقة من أعظم البراهين على أن الحضارة والمدنية المادية ليست هي المقياس الإلهي لقيمة المجتمعات والأمم، إذ لو كانت الحضارة -بمعناها الشائع- هي المقصد الأساسي للشريعة لكان العصر العباسي الذي ازدهرت فيه العلوم العقلية والتجريبية أفضل من عصر الصحابة، ولكان عصر الصحابة الذي توسعت فيه الدولة ونظمها خيرٌ

من عصر النبوة التي كانت فيها حياة محمدٍ وخاصةِ أصحابِه قوتًا كفافًا.

يهمنا التذكير هاهنا بأن هذه المعادلة التي أشرنا إليها لا نعني أنها قانون كوني مطرد، بمعنى أنه ليس كل تطورٍ مدنيٍ ينبني عليه تراجعٍ شرعي، بل هي واقعة عين تاريخية أردنا استكشاف دلالاتها، والدرس الجوهري فيها بالنسبة لنا هو أنه طبقًا لتصوراتنا الإسلامية الخاصة فإن الخيرية مرتبطة بالجوهر الإيماني والأخلاقي، وليس المظاهر المدنية والمادية".

التمييز بين الحضارة كغاية والحضارة كوسيلة

يقول الباحث إبراهيم السكران: "الموقف الإسلامي المعاصر من الحضارة والمثاقفة عمومًا والحضارة الغربية خصوصًا، يقوم على ثلاث ركائز منهجيةٍ كالتالي:

الركيزة الأولى: التمييز بين الحضارة كغاية والحضارة كوسيلة:

فالحضارة عند غلاة المدنية مطلب مطلق يريدون منها أن تهب رياحها وتبحر في كل اتجاهٍ بلا شروط تفرض من الخارج في ظل الحرية الشخصية إلى درجة غياب المعنى وغموض الغاية، أما الحضارة في التصور الشرعي فهي حضارة موجهة بهدف "تحقيق العبودية" بما تتضمنه من إظهار الدين والقيام بالشعائر والشرائع، فالحضارة المنشودة هي الحضارة المنضبطة بقيود الشريعة والهادفة لنصر الإسلام وتحقيق قيمه ومضامينه، وتأخذ قضايا وجزئيات الحضارة قيمتها التفصيلية بحسب مؤداها إلى هذه الغاية.

ولذلك فإن الشارع لم يوظف مفهوم الحضارة ولا المدنية وإنما وظف مفهوم "القوة" و"العلو" كقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال:٦٠] وقوله صلى الله عليه وسلم (ألا إن القوة الرمي) وقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ﴾ [آل عمران:١٣٩]، وقوله صلى الله عليه وسلم: «**اليد العليا خير من اليد السفلى**». ومن المعلوم أن الطاقة التخييلية التي تتضمنها ايحاءات مفهوم الحضارة والمدنية ليست كالدلالات التي يضخها مفهوم القوة، فالقوة مفهوم خادم للمبدأ

ومرتبط به، أما الحضارة فمفهوم موحي بالمتعة والرفاه.

والمراد من ذلك أن الحضارة والتمدن عند الإسلاميين "مطلب" لكنها ليست هي المطلب الرئيس ولا المطلب الجوهري لهذه الحياة، بل هي مجرد وسيلة لتحقيق الغاية الحقيقية التي هي العبودية.

الركيزة الثانية: التمييز بين الوجه العلمي والفلسفي والسياسي:

غلاة المدنية يدعون إلى الإقبال الشغوف واحتضان المنجز الغربي بكامل صوره وكأنه معطىً مصمت لا يتفاوت، ويتضايقون من الصرامة في الفحص والاختبار ويعدونها لونًا من التعنت، ولذلك يدعون عمليًا إلى التسامح والتغاضي عن الثغرات، أو يلتمسون لها المعاذير والتسويغات وينبشون لها الآراء الشاذة لتتكئ عليها، أما الإسلاميون فيفرقون بشكلٍ واضحٍ بين الوجوه الثلاثة الرئيسية للحضارة الغربية، فيتفاوت تقييمهم وصرامتهم وتدقيقهم في الاختبار والفحص بحسبها.

فأما **الوجه الأول فهو "الوجه العلمي"** المحض بما يدخل فيه من منتجاتٍ تجريبيةٍ وعلومٍ طبيعيةٍ وتصنيعٍ وتكنولوجيا ونظم اتصال وحوسبة، ونحوها من المنتجات التي يغلب عليها أن تكون "أدوات" أو "وسائل" محضة بحيث تستطيع كل ثقافة أن توجهها بحسب قيمها، فهذه حكمة مشتركة، وصواب الفكر الغربي فيها أكثر من ضلاله.

بل إن المجتمع الغربي اليوم لم ينفرد بها فهناك أمم أخرى تشارك في هذا الانتاج التقني إن لم تكن أكثر تفوقًا، وعلى وجه الخصوص اليابان والصين والهند، وتعتبر ظاهرة التلزيم (outsourcing) من أهم الظواهر التي كشفت تحولات التركز في الخبرة التقنية العالمية، بحيث صارت تعهدات التصنيع الخارجي في مناطق العمالة الرخيصة تخلق أقطاب خبرة تكنولوجية جديدة ليست في العواصم الغربية.

ووجه أغلبية الصواب في هذا الباب أن هذه المنتجات مستمدة من القوانين الكونية المحضة التي أودعها الله الطبيعة، فهي حظ مشترك لاتتفاوت كثيرًا بسبب الخلفية الدينية.

والواقع أن الإسلاميين بجميع أطيافهم سبقوا غيرهم من الطبقات الثقافية إلى الانتفاع بها، بل

وكتب كثير من السلفيين أن حقائق العلوم الطبيعية حقائق شرعية، بل لايوجد علم من العلوم المعاصرة على وجه العالم اليوم خدمه أصحابه برمجيًا مثل العلوم الشرعية، وصورة الشاب المتدين في كليات الطب والهندسة والحاسوب ونحوها ليست صورة طبيعية فقط بل هي صورة نمطية راسخة في الوعي الشعبي، حتى أن الفرانكفوني المتطرف محمد أركون أشار إلى ذلك في غير موضع من دراساته، فلا أدري ما وجه المزايدة على الإسلاميين والقول بأنهم ضد المثاقفة والاستفادة من المنجزات؟

وأما **الوجه الثاني فهو "الوجه الفلسفي"** للحضارة الغربية بما يتضمنه من تصورات عن الأسئلة الأنطولوجية والإكسيولوجية والإبستمولوجية وما بعدها من حقول الفلسفة الكبرى، كحقيقة الحياة، ومفهوم السعادة، ووظيفة الدنيا، وكنه الإنسان، ومستقبل البشرية بعد فنائها، والعالم العلوي، ومرجعية الأخلاق، وإطلاقيتها ونسبيتها، ومصادر المعرفة والتي هي البنية التحتية للفلسفة، ونحوها.

فهذا الوجه ضلال الفكر الغربي فيه أكثر من صوابه، خصوصًا في الأسئلة الكبرى، أما التفاصيل والجزئيات فقد يكون بعضها مشتركًا وبعضها متناقضًا مع الوحي.

الركيزة الثالثة: التمييز بين الانتفاع والانبهار:

غلاة المدنية يتوهمون أن هناك تلازم بين الانتفاع والانبهار، وأنه لكي نستفيد من الحضارة الغربية يجب أن تمتلئ أشداقنا بتأوهات التعجب، وأن نفغر أفواهنا ونحن نسوق فلسفتهم، وأن نحوط أسماءهم وأعلامهم بهالة التعبيرات الخارقة، ولذلك يطلق بعضهم عبارة "المعجزة الغربية" أو "معجزة الحداثة" ونحوها.

وتفريعًا على ذلك ينظرون إلى أي ذم أو انتقاص لواقع الحضارة الغربية على أنه رفض للانتفاع بما لديها من صواب! ويتبرمون بأي تعبير ديني في توصيف الحضارة الغربية كوصفها بالضلال

والفجور والفواحش والكفر وأمثالها من التعبيرات الشرعية، ذلك أن هذه المفاهيم وأمثالها مشبعة بحمولة دينية وهم يريدون التعامل بلغة مدنية تستبعد المحتوى الديني من التقييم.

والواقع أن عدم فهم غلاة المدنية للموقف الشرعي إزاء الحضارات هو سبب عدم فهمهم للموقف الإسلامي المعاصر من الحضارة الغربية، فليس في الشريعة تلازم مطلق بين الانتفاع من الآخر والانبهار به، بل الموقف الشرعي بخلاف ذلك أصلًا.

فالنبي -صلى الله عليه وسلم- استفاد من الحضارة المعاصرة له في الخندق ومشروعية الغيلة والتبادل التجاري وافتدى الأسير الكافر بتعليم المسلمين وراسلهم، واتخذ خاتمًا لمراسلته كما هي عادتهم، وقبل هداياهم كما قبل هدية ملك أيلة والقبط، وأكل من طعامهم ولبس من منسوجاتهم وشارك يهود خيبر في نخيلهم، وغير ذلك من أوجه التواصل الشرعي، لكنه مع ذلك كله بيّن ضلالهم وانحطاطهم وظلاميتهم بسبب إعراضهم عن نور الوحي، كما قال -صلى الله عليه وسلم- عن الفترة التي سبقت بعثته: «**إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم الا بقايا من أهل الكتاب**». رواه مسلم.

وقال تعالى:﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ ﴾ [إبراهيم:١].

وقال سبحانه وتعالى:﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ ﴾ [الحديد:٩].

فبيّن سبحانه أن هذه الأمم التي عاصرته كلهم في ظلمات، وأنهم هم الظلاميون الذي يحتاجون التنوير الحقيقي الذي هو نور الوحي.

هذه التمييزات المنهجية الثلاثة وهي: التمييز بين الحضارة كغاية والحضارة كوسيلة، والتمييز بين الوجه العلمي والفلسفي والسياسي للحضارة المعاصرة، والتمييز بين الانتفاع والانبهار، هي المفتاح الرئيس لفهم موقف الإسلاميين المعاصرين من الحضارة المعاصرة، ومن استوعبها علم قطعًا جهل من يقول أن الإسلاميين ضد الحضارة والمثاقفة والتحديث، واستبان له أن لدى

الإسلاميين موقفًا تفصيليًا منظمًا مستمدًا من خلاصة توازنات نصوص الشريعة.

أما كثرة تذمر غلاة المدنية وشكواهم من الارتياب الاجتماعي ضد الثقافة الغربية وضعف الثقة بدعاتها وتشنج بعض الناس ضد المنتج الغربي فالمسؤول الحقيقي عنه ليس الإسلاميين وانما النزق التغريبي الذي تبناه بعض غلاة المدنية".

مشكلة الحضارة

الوجه القيمي للغرب مربك للغاية فالغرب يعد في جانب القيم من أجهل الأمم على الإطلاق، فترى قطاع اللذة قد تضخم على أشده. ومظاهرات الشواذ حققت نتائجها، والعاهرات تقنن أوضاعهن المعيشية خلف فاترينات الزجاج. ولا حد للمعشوقات ولا للزنا عندهم فلو زنا رجل بألف امرأة ما وَجد في دساتيرهم له لومًا في حين لو تزوج امرأتين يُحبس فورًا.

ولا مانع من شذوذ الرجال مع الرجال ويحاولون الآن تقنين شذوذ الرجال مع الأطفال الصغار كما في جماعة "رجال يحبون أطفال man boy love NAMBLA " في حين يُمنع تمامًا الزواج الشريف بين رجل وفتاة تحت ١٨ سنة.

إنها جاهلية كبرى في مجال القيم والأخلاقيات والإنسانيات تودي بكل حضارتهم في أية لحظة.

يقول الباحث إبراهيم السكران: "ويتبع انهيار الأخلاق عندهم الوجه السياسي الكالح فالمؤسسة السياسية الغربية مؤسسة إمبريالية استعمارية تمتص ثروات الأمم الأخرى، وليس لديها أية حواجز أخلاقية أمام مصالحها.

والمؤسسة السياسية الغربية هي التي خلقت أبشع النماذج الدموية في التاريخ، وهي المسؤولة عن تطوير أدوات الابادة البشرية الشاملة، وقصف المدن الكاملة بما فيها من المدنيين، كيف تبرأ تلك الحضارة من عقدة الذنب وهي تتذكر عصر العنصريات والقوميات والنازية وهيروشيما ونجازاكي واستعمار الدول العربية وغوانتنامو وأبو غريب، والأسلحة النووية والغازات السامة، وإيقاف تحقيقات الفساد لأجل مصالح قومية عليا، بل وسن تشريعات حرمان المسلمة من حجابها، ورعاية مؤسسات صحفية تسخر بنبي يؤمن به شطر العالم.

فالمجتمع الغربي يتطور تقنيًا بصورة جيدة ويرتد فلسفيًا وأخلاقيًا بصورة مزعجة وهذا التفاوت في الاتجاه سيولد عواصف ارتداد مدمرة.

على مثل سنتها هلكت أمم وحضارات كانت ملأ السمع والعين.

فالمجتمع الغربي كقصر فخم المظاهر لكن أساساته مهددة بالانهيار، فهل من العقلانية أن نستغرق في جمال مظاهره ونستنفر الناس لدخوله، أم أن نحذر الناس من انهياره الوشيك؟

ومما يكشف ذلك أن الثقافة الغربية تعاني من اضطراب حاد على صعيد الالهيات، فغالب الناس في ذلك المجتمع يعاني من تشوش عميق في هذا الأساس الجوهري، أما أغلب النخب المثقفة فهي إما لائكية أو أن قضية الدين عندها قضية مؤجلة غير محسومة، فالعالم الغربي نتيجة عدم تشرفه بالإيمان بنبوة محمدٍ –صلى الله عليه وسلم– لايزال محرومًا من التصورات الصحيحة الدقيقة عن الله والمعاد والنبوات، والعالم العلوي والمستقبل بعد الموت، ونحوها من المطالب العالية.

فهذا السؤال الجوهري وهو: ماذا خسر الغرب حين كفر بنبوة محمد؟ لايزال غائبًا عن كثير من المثقفين المسلمين وللأسف.

فالمجتمع الغربي حين كفر بنبوة محمدٍ –صلى الله عليه وسلم– خسر تحقيق مستقبل جيد بعد فناء البشرية وأصبح مهددًا بمخاطر كارثة جهنم، وخسر التعرف على محتوى الوحي، وهي تلك المعلومات الثمينة التي حملها آخر رسول أرسله خالق الكون الينا.

إن المجتمع الغربي يعاني من "ظاهرة الوثنية" التي هي أحط مستويات التخلف، وكثير من غلاة المدنية لايتنبه لظاهرة الوثنية في المجتمع الغربي نتيجة كونه يعتقد أن الوثنية هي السجود لصنم فقط، بينما مفهوم الوثنية في القرآن أوسع من ذلك نتيجة سعة مفهوم العبودية، فإن الانصياع التام للهوى الشخصي واللذة الخاصة عبادة للهوى، ولذلك قال تعالى:﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾ [الجاثية:٢٣].

وقال سبحانه: ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾ [الفرقان:٤٣].

وتبعًا لتأليه الهوى فان الإنسان الخاضع لمتطلبات المادة خضوعًا تامًا جعله النبي –صلى الله

عليه وسلم- عبدًا للمال، فقال كما في الصحيح: «**تعس عبدالدينار، تعس عبدالدرهم**».

أيضًا المجتمع الغربي لم يهتد لكثيرٍ من أصول وتفاصيل العدل التي كشفها الوحي، فلم يهتد الى كارثية الربا والميسر والمسكرات والفواحش، ولم تتطور عقليته التشريعية إلى معرفة كثيرٍ من تفاصيل نظام الإثبات والقضاء وقواعد العلاقات الأسرية التي دل عليها الوحي.

فما زالوا حتى الساعة يبيحون تعدد العشيقات إلى ما لا حد له ويحرمون الزوجة الثانية.

ويبيحون شذوذ الرجال مع الرجال ويحرمون التشكيك في عالمية مُثُلهم.

وأحد موجبات الغضب الإلهي العام تحليل محرمات كالشذوذ - وما أهلك الله قرى سدوم وعمورة إلا لانتشار المثليين فيها- أو خيانة في المعاملة كتطفيف الميزان.

ولم يناهض ظاهرة المثلية في المجتمع الغربي إلا المؤسسة الكنسية نتيجة ماتبقى لديها من نور النبوات".

مشكلة سؤال الحضارة هي إفلاس الغاية!

سؤال الغاية في النموذج المادي بلا جواب ولا شبهة جواب.

يقول الباحث إبراهيم السكران: " كل الثروات المكدسة لدى الغرب لم تجب ولو بنفخة يسيرة عن الحيرة الفلسفية في المطالب الكبرى في الإيمان بالله والاطمئنان بقدره، وظهر بدلا من ذلك تبدد السكينة بجهل أصل الحياة ومآلها.

القارئ المسلم لايكاد يجد -في النموذج المادي- نتائج مبرهنة يسعد بها ويحملها كرسالة اجتماعية، بل كل فيلسوف ينقض ما قاله سابقه، وغاية القارئ في هذه الأبواب ليس أن يبني تصوراته وعقيدته بشكل صحيح فتكون له إضافة في ذاته، بل غايته أن يحصل له مران ذهني ودربة على السجال والجدل والرد والتفنيد، في مقابل أن يخسر فضيلة الحسم واليقين والتي هي من أهم أسباب الإمامة في الدين كما قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة:٢٤].

فيمتلئ القارئ بالارتياب والحيرة واللاحسم في كل شئ، حتى يصل إلى مرحلة عدمية لا يستطيع فيها أن يجزم بشئ من معطيات الشريعة، وهذه ظاهرة مشاهدة، والارتياب والحيرة والتردد في الأصول الكبرى من شعب النفاق والعياذ بالله، كما قال تعالى: ﴿وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ [التوبة:٤٥].

ولذلك تجد عامة غلاة المدنية الذين اقتربوا من هذه الدراسات الفلسفية يرددون "الأهم هو طرح الأسئلة وليس الإجابات" أو قولهم "إلى المزيد من طرح الأسئلة" ونحو هذه العبارات التي هي كالمخدر يسلون به أنفسهم عن عدم الوصول لنتيجة، حتى أصبح شائعًا لدى المؤرخين للفلسفة قولهم "الفلسفة تقدم الأسئلة بما يفوق تقديم الإجابات".

وهذه الحالة متسربة من روح الشك الفلسفة حتى قال الامام ابن تيمية في نقد ذات الفكرة:

"وإنما فضيلة أحدهم باقتداره على الاعتراض والقدح والجدل"[١].

وسبب ذلك أن المضامين الرئيسية المكتوبة في هذه الحقول إما لائكية محضة وهو الأكثر، وإما كتابية محرفة وهو الأقل، بل هو النادر، على أن من ورث فيهم شيئًا من الكتابية المحرفة خير ممن بقي على اللائكية الخالصة، فإن بركة بقايا النبوات وما فيها من النور خير من العمى التام، فالمتمسك بالمسيحية المحرفة أشرف وأرفع في ميزان الله من الكافر المحض، فنصوص الوحي متضافرة على تفضيل الكتابيين على الدهرية الملاحدة، وهذا من بركة بقايا النبوات التي بأيديهم، فالكتابي خيرٌ من المجوسي، والمجوسي خيرٌ من الملحد، لأن المجوسي معه شبهة كتاب والملحد لا كتاب له، ولذلك قال الإمام ابن تيمية في مجموع الفتاوى: (أضل أهل الملل مثل جهال النصارى وسامرة اليهود: أعلم من الفلاسفة، وأهدى وأحكم، وأتبع للحق).

وقال الإمام ابن تيمية أيضًا: (ومن المعلوم أن المشرك إذا تمجَّس، والمجوسي إذا تهوَّد، حسنت حاله بالنسبة إلى ما كان فيه قبل ذلك).

ومما يجدر الإشارة إليه أن هذا الوجه الفلسفي ليس هو الوجه المتقدم في الحضارة الغربية أصلًا، بل هو الوجه الظلامي المتخلف المنحط، برغم محاولات كثير من غلاة المدنية الزعم بأن التطور الغربي انعكاس لفلسفته، وهذا مجرد أمنية تاريخية.

والواقع أن التفوق المدني الغربي اليوم عائد للثورة الصناعية في المرحلة السابقة، ثم الثورة التكنولوجية ونظم الاتصال والمعلوماتية حاليًا، وهذه كلها نتاج عرق المعامل والتمويلات السياسية الضخمة لمراكز البحوث، وغاية الفلسفة أن تكون تفسيرًا استرجاعيًا لما حدث، فهي دومًا تفسير لاحق للأحداث تحاول اعطاءها المعنى بعد أن تقع، فأفضل حالاتها أن تكون "حكيم بعد الحادث"، وهذا سبب تراجع أهميتها المعرفية.

ولذا قال ابن تيمية منبهًا على أن الفلسفة لا تدير المجتمعات: " وهل رأيت فيلسوفًا أقام

(١) مجموع الفتاوى ٤-٢٧.

مصلحة قرية من القرى، فضلًا عن مدينة من المدائن؟"[١].

بل إن من أسباب تراجع أهميتها المعرفية عدم قدرتها على خلق "قوانين مطردة" تحقق لها العلمية، ولذلك فهي تعاني من عقدة نقص تاريخية قديمة أمام العلوم الطبيعية التي تفرض احترامها المعرفي بسبب ما تحمله من القوانين العلمية المنظمة، ولذلك كثرت الصيحات الغربية في الفترة الأخيرة بإعلان موت الفلسفة، وصعد نجم العلوم الامبريقية.

وسبب هذا الوهم حول عظمة الفلسفة أن كثيرًا من مثقفي غلاة المدنية تأثروا بالكتابات التعليمية عن "قصة الفلسفة" والتي صورت التاريخ البشري كنتاج مباشر لأفكار بضعة عشر فيلسوفًا على مر التاريخ، وكأن التاريخ الإنساني عمومًا والتاريخ الأوروبي خصوصًا مركبة يتربع في كابينتها طائفة من الفلاسفة يخلف بعضهم بعضًا يشيرون للمجتمعات أن تذهب يمنة أو يسرة!

والواقع أن الكتب الفلسفية ذات الطابع التعليمي عبثت بتفكير غلاة المدنية كثيرًا، فهذه الصورة المرتسمة في أذهانهم وهْم طريف يغيِّب دور العوامل التاريخية الجوهرية في صناعة الماضي والحاضر، كدور القيادات السياسية والخبراء والأعمال الأدبية الكبرى والعواطف الشعبية، فضلًا عن دور الإعلام الحديث ونظم الاتصال وتوازنات القوى والشركات المتعددة الجنسيات ومتغيرات الموارد ونحوها".

---

(١) درء تعارض العقل والنقل ٥-٦٥.

دور النبوات في تشكيل التاريخ

يقول الباحث إبراهيم السكران: "دور النبوات في تشكيل التاريخ حقيقة لا ينفصل عنها الباحث في تاريخ الأمم والحضارات. ولذلك تنبه المؤرخ الشهير أرنولد توينبي (ت:١٩٧٥م.) وهو المتخصص في تاريخ الحضارات، إلى دور النبوات كعاملٍ رئيس في صناعة التاريخ فقال: "العقيدة الدينية جزء من نظام الاستيلاد الحضاري"[(١)].

أما التاريخ الإنجليزي الذي هو أخبر به من غيره فيقول: "التحول الديني كان حقيقة مبدأ كل شيء في التاريخ الانكليزي"[(٢)].

بل إن توينبي يرى أن الدين هو "الحوض الحامل" الذي ينقل الحضارة من طورٍ إلى طور، لذا استعار لها وصف "Chrysalis" وهو الغلاف الذي يكسو الفراشة في انتقالها من طورٍ إلى طور.

فقال: "الأديان بمثابة حاضن لجميع الحضارات، بل إن بقايا كل الحضارات البائدة ظلت إلى اليوم محفوظة في لحاء ديني"[(٣)].

ومثل هذا التحليل لا يصدر من مفكر ثانوي في الفكر الغربي، بل هو نموذج في سياق تخصصه، وموسوعته تقع في اثني عشر مجلدًا.

وقبل توينبي نبه على هذه العامل الحاسم ابن خلدون في مواضع كثيرة من المقدمة ومنها قوله: (الدول العامة الاستيلاء، العظيمة الملك، أصلها الدين، إما من نبوة أو دعوة حق)[(٤)].

وقال الإمام ابن تيمية في الصارم المسلول: (ليس في الأرض مملكة قائمة إلا بنبوة أو آثار نبوة،

---

(١) أرنولد توينبي، مختصر دراسة التاريخ، ترجمة فؤاد شبل، المركز القومي للترجمة، ٣-١٥٢.

(٢) م. س. ١-٥.

(٣) م.س. ٣-١٥٣.

(٤) المقدمة، ص١٦٧.

وإن كل خير في الأرض فمن آثار النبوات، ولا يستريبن العاقل في هذا)[(١)].

بل إن ابن تيمية له ملاحظات دقيقة في مسألة احتضان الدين للحضارات فهو يقول مثلا: "كل أمة ليس لها كتاب ليس في لغتها أيام الأسبوع"[(٢)].

وقال ابن القيم: "لولا النبوات لم يكن في العالم علم نافع البتة، ولا صلاح في معيشته ولا قوام لمملكته"[(٣)]. ". انتهى كلام إبراهيم السكران -حفظه الله-.

فالنبوات توفر أجوبة الغاية وتعطي ردودًا شافية في المسائل الوجودية الكبرى.

في مقابل الفلسفات التي لديها حوله معلومات مشوهة في أبواب كباب الإلهيات، وما يتضمنه من معرفة الله وما ينبغي له معرفة صحيحة، والعوالم الغيبية وتقدير كل شئ في اللوح المحفوظ، وجريان السنن الطبيعية بغايات إلهية، وأثر العبادة في النواميس الكونية، وحركة القلب بالتزكية كالتوكل والافتقار والضراعة، ونحو هذه المعاني التي هي التنوير الحقيقي، كما قال تعالى في هذه المقارنة بين تنوير الوحي وظلامية ما يعارضه: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:١٢٢].

---

(١) الصارم المسلول ٢-٤٥٧.

(٢) لأن الأسبوع هو نص كتابي يحدد مدة خلق السماوات والأرض في ستة أيام وهذا لا يُعرف إلا بالنبوات. مجموع الفتاوى ٧-٩٥.

(٣) مفتاح دار السعادة ٢-١١٥٥.

وماذا عن قيم العدل واحترام الوقت عند الغرب؟

أليست هذه موروثات حضارية؟

صراحةً ما يشيعه دعاة العلمانية في بلادنا العربية من تشبع المجتمع الغربي بأخلاقيات الصدق والأمانة في العمل التجاري، فإن بعض ذلك موجود حقيقةً كما هو موجودٌ في غيرهم من الأمم، ولكن كثيرًا منه ليس صدقًا وأمانةً يُبتغى بها وجه الله، وليس نابعًا من الإخلاص لخالق الكون سبحانه، بقدر ما أنها "مصداقية تسويقية" مدفوعة بحسابات الربح والخسارة المادية ومهارات "الماركيتنج".

ويكشف ذلك إحصائيات حجم الاختلاسات والسطو المنظم وفنون الجريمة في المجتمع الغربي، والذي تعرضه دومًا الدراسات الاجتماعية بإسهابٍ، وتقتبس منه الصحافة أحيانًا بعض النماذج، وهذا مما يؤكد أيضًا حاجة الغرب الى العلوم الالهية لتصحيح الدوافع.

ولذا فأكثر دول العالم جريمة على الإطلاق هي حصريا الدول الغربية.

فمثلا أكبر معدلات اغتصاب على الإطلاق حصرية بأكثر دول العالم تقانة[(١)] .

وخمس مواطني الدول الغربية يمارسون نوعًا من الشذوذ الجنسي، ويطالب بحرية الشذوذ أكثر من أربعة أخماس مجتمعاتهم[(٢)] .

إن حضارة آدم سميث جعلتنا مُهددين بانتحار كوكبي.

أما في مجال المخدرات فيتساوى ماليًا حجم تجارة المخدرات مع حجم تجارة السيارات داخل الولايات المتحدة .

والحربان العالميتان اللتان أبادتا حوالي ٥٪ من سكان العالم كانتا نزاع أوربي- أوربي ، وإبادة

---

(١) http://www.worldblaze.in/top-١٠-countries-with-highest-rape-crime-in-the-world-٢٠١٥/

(٢)http://www.pewglobal.org/٠٤ /٠٦ /٢٠١٣/the-global-divide-on-homosexuality

ملايين السكـان في أوربا، مثل يهود أوربا، ومزارعي روسيا (الكولاج)، وغجر ألمانيا، والسلاف، والأقليات الأثنية؛ هذه الإبادة الشمولية لم توفرها سوى الحضارة الغربيـة .

واستئصال طبقة كاملة من الناس هذا الاستئصال ما كان ليحدث لولا الحداثة الغربية، فقد اعتبر الليبراليون الأوائل أن إبادة الهنود الحمر نوع من الدفاع الشرعي وكأن الهنود هم الذين يغزون أوروبا ، وقد تقلص عدد الهنود الحمر من ١٠ مليون إلى ٢٠٠ ألف نسمة خلال سنوات قليلة؛ ولذا يقول سيمون بوليفار محرر أمريكا اللاتينية : "يبدو أن الولايات المتحدة تسعى لتعذيب وتقييد القارة باسم الحرية "[١] .

فالإمبريالية والحروب الحضارية كانتا دائمًا نتاج المجتمعات الأرستوقراطية الديموقراطية الليبرالية، وأشد الحروب ضراوةً لم تظهر إلا بعد ظهور الديموقراطية اللليبرالية في الغرب.

إن التاريخ الأسود لصراع الحضارة في الغرب في قرن واحد شيءٌ مروع وهذه بعض المذابح التي جرت بينهم :-

U.S.S.R.: ٢٠ million deaths

China: ٦٥ million deaths

Vietnam: ١ million deaths

North Korea: ٢ million deaths

Cambodia: ٢ million deaths

Eastern Europe: ١ million deaths

---

(١) ناعوم تشومسكي الأيديولوجية والاقتصاد ص٦.

Latin America: ١٥٠ , ٠٠٠ deaths

Africa: ١ , ٧ million deaths

Afghanistan: ١ , ٥ million deaths

The international Communist movement and Communist parties not in power: about ١٠ , ٠٠٠ deaths

.The total approaches ١٠٠ million people killed

Source: Stéphane Courtois, Nicolas Werth, Jean-Louis Panné, Andrzej Paczkowski, Karel Bartosek, Jean-Louis Margolin, The Black Book of Communism, Harvard University Press, ١٩٩٩, p. ٤[١].

وبعد مرور ٥٠٠ عام من الاستعمار و٥٠ عام من صندوق النقد الدولي نعيش في عالم مُحطم مُشوَّهٍ ربعُ شبابه عاطلون عن العمل يتحكم الشمال في ٨٠٪ من الثروات مع أن تعداد سكانه لا يتجاوز ٢٠٪ من سكان العالم، و منذ الغزو الحضاري المعاصر لكوكب الأرض أصبحت نهاية التاريخ أمرًا مقبولًا حرفيًا، وتراكم لدى البشر أسلحةٌ تكفي لتدمير الأرض عشرين مرة مع أن مرة واحدة فقط هي التي ستحدث، لقد أدت الحضارة الحديثة إلى نهـاية الحيـاة نظريـًا!

وأغلب دعاة العلمانية لا يعرفون شيئًا عن هذه الدراسات ولم يطالعوا إلا منشورات تكريزية يروجها سدنتهم الملحدين.

أنظر ما كتبه أنتوني غدنز في كتاب "علم الاجتماع" وهو الكتاب المعتمد في الأكاديميات الغربية اليوم عن تجذر الجريمة بما لا يقارن عبر كل العصور في المناخ الغربي المعاصر.

كهنة العلمانية العرب يعانون من الفشل في الشعور بالاستقلال وتكوين رأي أمام المحتوى التقاني المرتفع لدى الغرب، فتراهم يطلبون منك بانتظام تقليد الغرب والتغافل عن سلبياته.

---

(١)http://www.harunyahya.com/disasters٠٤.php

فانكشف تفكيرهم المهزوم ووهنهم البحثي وشلل قدرتهم على التحليل الكامل للظاهرة.

إن كهنة العلمانية العرب يعانون من الشلل العقلي في نقد الغرب وبيان كفره لمجرد انبهارهم بمنتوجه المادي.

كهنة العلمانية العرب يضطرون إلى تعميم التفوق فيعممون التفوق التقني والاقتصادي الغربي إلى تفوق فلسفي وأخلاقي فصاروا ملوكيون أكثر من الملك.

فأصيب هؤلاء الكهنة العرب بفصام حاد أفقدهم القدرة على الفصل والتمييز بين المعطيات.

إن ما يقوم به كهنة العلمانية العرب في بلادنا من ترويجٍ لبضاعة الغرب التقنية وإجبارنا على غض النظر عن ردته القيمية والمعرفية والأخلاقية يذكرنا بحاشية المجنون الثري الذين يصرخون في الأسواق لثراء سيدهم وما أن يتحدث أحد الباعة عن جنونه إلا ويغلقون فمه بالقوة.

إن المطلوب وببساطة التخلص من الغرب كمقولة مرجعية وتحويله إلى موضوع دراسة لا مصدر تلقي.

الولاء والبراء

يقول الباحث إبراهيم السكران: "من أهم المقولات عند غلاة المدنية قولهم (يجب أن نعمل للإنسان بما هو إنسان، بغض النظر عن هويته وعقيدته ودينه) ويرددون كثيرا لفظ "الإنسان" بصيغة مطلقة بدون إضافات تقيد أو تخصص، ويحمل بعضهم شعار "الأخوة الإنسانية" او "الآدمية المشتركة" أو "المذهب الإنساني" ونحوها من اللافتات التي تدور حول هذا المعنى.

والواقع أن هذه الدعوة –وإن كان البعض يرددها بحسن نية– إلا أنها تضمر سلخ الأوصاف القرآنية القطعية التي ميّز الله على أساسها بين الناس وفاوت في العلاقات طبقًا للتفاوت فيها، كوصف المؤمن والمسلم والفاسق والكافر والمشرك والمنافق، ووضع هؤلاء جميعًا في مرتبةٍ واحدةٍ بناءً على اشتراكهم في الإنسانية، ليصبح المسلم واليهودي والوثني على حدٍ سواء لا فرق بينهم طالما أنهم يعملون لسعادة الإنسانية والسلام البشري!

يا ترى كم من الآيات يجب أن ننزعها من المصحف ليمكن للمرء تقبل هذه الدعوة؟ إن مجرد التأمل في هذه الدعوة وتصور مآلاتها ومؤداها كافٍ لردع المسلم –الذي يقدر الله حق قدره– عنها والتبرؤ منها.

لقد بين كتاب الله بشكلٍ جليٍ واضحٍ أن الإنسان إذا أعرض عن الإسلام والوحي فقد تكريمه الفطري الكوني الذي ذكره تعالى في قوله: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء:٧٠] وأصبح مهانًا منحطًا في نظر الله ونظر أهل الإيمان، ولذلك لم تأت الشريعة بالمدح والتعظيم المطلق لـ"الإنسان" كما يتوهم بعض غلاة المدنية، بل إن القرآن بيّن في مواضع كثيرة ذم "الإنسان" إذا فقد شرف الإيمان ومن ذلك قوله تعالى:﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ [عبس:١٧]، وقوله تعالى:﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات:٦].

ومَن تدبر المواضع القرآنية التي ورد فيها مفهوم "الإنسان" وجد أن الله سبحانه وتعالى يذم جنس الإنسان بمذام متنوعة ثم يستثني من عموم هذا الذم أهل الإيمان.

ومن ذلك أن الله تعالى أقسم بالزمان على أن الإنسان في خسارةٍ تامةٍ كما قال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ

﴿١﴾ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ﴾ [العصر: ١-٢].

ثم أتبعها باستثناء أهل الإيمان من هذه الخسارة فقال:﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ [العصر:٣] .

وذم الله جنس الإنسان بصفة القنوط والجحود والبطر ثم استثنى أهل الإيمان كما قال تعالى: ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ ثُمَّ نَزَعۡنَٰهَا مِنۡهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ ﴿٩﴾ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ نَعۡمَآءَ بَعۡدَ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٞ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾ [هود: ٩-١١].

وهذا المعنى المتضمن ذم جنس "الانسان" ثم استثناء أهل الايمان له نظائر كثيرة في كتاب الله وسنة رسوله –صلى الله عليه وسلم– بل إن الله هدّد الإنسان تهديدًا مدويًا بقوله تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ﴾ [الانفطار:٦] .

ولذلك لما سمع الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رجلًا يقرأ هذه الآية قال: (غره والله جهله) والذي يبدوا أن عمر استنبط هذا المعنى من الآيات التي وصفت "الانسان" بالجهل كما سبقت الاشارة لبعض تلك الآيات.

فكيف يقال بعد ذلك أن الله كرّم "الإنسان" وفضّل "الإنسان" بغض النظر عن هويته الدينية، وأن الأديان لا تؤثر في كرامة الإنسان إيجابًا ولا سلبًا، وأننا يجب أن نعمل لمفهوم "الإنسان" بغض النظر عن عقيدته، أو قول بعضهم لا تجعلوا الرأي الشخصي يفرق بين أبناء آدم، أليس في ذلك مشاقة لكلام الله سبحانه وتعالى الصريح؟

ومن الإنصاف أن نقول أن بعض الكتاب الذين يرددون هذه المقولة لم يتنبهوا لمضامينها المصادمة للميزان الإلهي، ولم تخطر ببالهم الآيات القرآنية في ذم الإنسان إذا فقد الإيمان.

ثم لو نظرنا إلى التقييم الحضاري للإنسان في الدول الحضارية الحديثة، فإننا نجد أنه لا يوجد

أصلًا دولة من الدول اليوم شرقيها وغربيها تعمل للإنسان المطلق، بل تجدها تميز في الجنس الإنساني إما على أساس وطني أو قومي أو عرقي أو غير ذلك من المقاييس، فكيف نتقبل تمييز هذه الأمم بين المواطن وغير المواطن، ولا نقبل تمييز الله بين المسلم والكافر؟!

ثم إن الإنسان بالمنظور المادي من حيث هو إنسان ليس أكثر من نسق طبيعي يخضع لقوانين الطبيعة وحتمياتها، مجرد نفاية نجمية!

وبالتالي فمِن أين لداعية الحضارة أن يمنع التعرض للإنسان بأذىً؟

فالذي لا يؤمن بالدين لا يكون في المركز وإنما هو مجرد شيء من بين الأشياء!

ولذا فالقرآن الكريم يطرح هذه المسالة ويبين أنه لا شرف للإنسان من حيث هو إنسان! وإنما شرفه وقيمته لا يستمدها إلا من كونه عبدًا لله!

فشرف الإنسان لا يكون إلا من خلال عبوديته لله سبحانه!

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ﴾ [الأحزاب:٧٢].

فالإنسان هو المركز والطبيعة هي الهامش.

ويبتعد الإنسان عن سموه في هذا العالم بقدر ابتعاده عن الله ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾ [الحشر:١٩].

ومن رأى أولئك الكفار لاهثين في لجام الملاذ، منكبّين على الموائد، لايبالون مأتاها ومخرجها، ولا يرفعون رأسًا بطيباتها من خبائثها، ويتضاحكون عاليًا في ليلةٍ غاب عنها القمر، ولم يستعدوا للقاء الله طرفة عين، فسيفريه العجب فريًا وهو ينظر إليهم ويتذكر قوله وتعالى في سورة محمد: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ ﴾ [محمد:١٢].

فعلًا والله.. ألا ما أعظم هذا التشبيه الإلهي، أرأيت كيف تغيب رؤوس الأنعام في قلال العشب لا ترفع أعناقها إلا لتعود مرةً أخرى، ليست مهمومةً بلقاء الله، ولاتفكر في خالقٍ ولا نبيٍ ولا وحيٍ ولا عبادةٍ ولا بعثٍ ولا حسابٍ ولا عذابٍ ولا مستقبلٍ أخروي حتى يفجؤها يومٌ يقتص

فيه للشاة الجلحاء من الشاة القرناء، فتلك حياة الكافر.

وانظر إلى كتاب الله كيف يعيد سبحانه هذا التصوير والتشبيه بالأنعام مرةً أخرى، مشيرًا إلى علة ذلك وهي استغراق هؤلاء المساكين عقولهم وحواسهم في تدبير معاشهم الحاضر والإعراض عن الاستدلال بها على الله والاستعداد للقائه في الحياة المستقبلية القريبة، بل جعلهم هذه المرة في مرتبة أحط من مرتبة الأنعام كما قال سبحانه في سورة الأعراف: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف:١٧٩].

ويأتي سبحانه مرةً ثالثةً بذات التشبيه، وذات التعليل، وذات المرتبة، فيقول سبحانه في سورة الفرقان: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان:٤٤].

وضرب الله سبحانه مثلًا آخر أشد بشاعة لنوعٍ آخر من الكفار وهم الذين بلغوا مرتبةً من العلوم ولكنها لم تقدهم إلى الإيمان بالله، فشبههم بما هو أقبح من كل ماسبق، فقال سبحانه في سورة الأعراف: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ [الأعراف:١٧٦].

فكل من أعرض عن الإسلام ونور الوحي فهو في هذه المرتبة المنحطة، ولذلك وصفهم الله بالرجس لما تبرمت صدورهم عن قبول الإسلام، كما قال سبحانه في سورة الأنعام: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام:١٢٥].

وذكر الله عنهم هذا الرجس أيضًا في سورة يونس أيضًا فقال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [يونس:١٠٠].

فيالله العجب، كيف صار كثيرٌ من الأذكياء في مرتبة الأنعام والدواب في المعيار الإلهي؟! بل

جعل بعض هذه أحيانًا أشرف منهم! آيات قرآنية كأنها ضربٌ من الخيال في عصر الأنثربولوجيا الفرانكفونية، لكنها حقائق الوحي..

هذه مرتبة الكافر في المعايير الإلهية، فكم هو شعور عاصف بالألم حين يكتشف الإنسان أن معاييره غير تابعة للمعيار الإلهي، فيتفاجأ بمشاعره وأحاسيسه الداخلية تعظِّم من قد حطَّ الله منزلته، وتستهين بمن رفع الله شأنه!

يتيبس الذهول في نظرات المرء حين يرتطم بكارثة معاييره وموازينه الشخصية وهي تتعارض مع معايير وموازين جبار السموات والأرض.

هذه حقائق الوحي، وهذا حكم الله وقراره، وهذا قضاء جبار السموات والأرض، إن كنا فعلًا نؤمن بالله، ونفخر بمضامين كلامه سبحانه، ونلتزم بمقرراته، ونقدره حق قدره".

سنة الاستدراج

يقول الباحث إبراهيم السكران: "الواقع أن من أظهر قوانين التاريخ التي سطرها لنا الوحي "قانون الإملاء والاستدراج الإلهي"، فالقوة المادية وتعملق الإمكانيات التي بأيدي الكفار هي نوع من ذلك كما قال سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ﴾ [الأعراف: ١٨٢-١٨٣].

وقال تعالى عمن يكذب بهذا الوحي: ﴿ فَذَرۡنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِۖ سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [القلم:٤٤].

وقد قصّ الله علينا طرفًا من ألوان هذا الإملاء والاستدراج الذي ترتجف له قلوب المؤمنين، فقال تعالى: ﴿ فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ﴾ [التوبة:٥٥].

بل تأمل في هذا المشهد المخيف حين يخبر تعالى بأنه يزيد للمعرض كل شئ ثم يباغته بالعقوبة، كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ ﴾ [الأنعام:٤٤].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ فَأَمۡلَيۡتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ [الرعد:٣٢].

والاستخفاف بوعيد الله للمكذبين والكافرين من شعب النفاق الخطيرة على الإيمان، ولا سيما أن وعد الله ووعيده كثيرًا ما يتحقق في اللحظات الحرجة أو في المشهد الأخير حين يستكمل الله سبحانه وتعالى سنة الابتلاء والتمحيص ويمر المؤمن بساعات الشدة كما قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا ﴾ [يوسف:١١٠].

ونبه سبحانه على أن المؤمن قد يمد الله في حياته حتى يشاهد العاقبة بكاملها وقد يتوفاه الله قبل ذلك لكن الله لا يخلف وعده كما نبه تعالى على ذلك في ثلاثة مواضع من كتابه فقال: ﴿ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ ﴾ [غافر:٧٧].

فينبغي على المسلم دائمًا أن يتفقه أحوال الأمم بمجملها وبشمولها لا بحلقةٍ من حلقاتها".

ملخص سؤال الحضارة وجوابه

كيف يا تُرى نُقنع العلماني بخبوت سِحر العالم المادي، وبريق الآخرة؛ رغم أن أحدًا منّا لم يفلت من ضيق حدقته ولمعان عينه أمام هذا السِحر؟

السؤال الذي نطرحه هنا أمام العلماني هو سؤال عقلي ومنطقي وتحليلي في المقام الأول يعتمد جوابه على عقله هو وتحريره هو.

والسؤال كالتالي:

هل المكسب المادي ومركزيته غاية في ذاته؟

فإن كان جواب العلماني –المتوقَّع– نعم!

فيكون الرد:

مِن أين لك بذلك؟ وبأي دليلٍ من خارجنا استقيت هذا المعنى؟

وما الفرق في الإطار المادي بعد الموت بين الذين عمروها وتركوها؟

ولماذا لم تحقق فكرة مركزية العالم المادي استقرار النفس واطمئنانها طالما أنها كانت هي الغاية؟

أليست مفاهيم الاغتراب وما بعد الحداثة والعدمية منبتها جميعًا الأمم التي اعتنقت فكرة" مركزية العالم المادي" ؟

أليست العبثية هي ثمرة أكثر البلاد تقدمًا؟

أليست كلمة "عدمية" هي كلمة حصرية بالحداثة وما بعدها؟

For some examples of the view that postmodernity is a nihilistic epoch see Toynbee, Arnold (١٩٦٣) A Study of History vols. VIII and IX; Mills, C. Wright (١٩٥٩) The Sociological Imagination.

For examples of the view that postmodernism is a nihilistic mode of thought, see Rose, Gillian (١٩٨٤) Dialectic of Nihilism; Carr, Karen L. (١٩٨٨) The Banalization of Nihilism

ألا يوحي هذا ولو للباحث المتجرد لتفحص أحوال الأمم إلى تأكيد أن: الإنسان ليس مُفصلًا على طراز مركزية المادة؟

إذ لا يوجد إلى اليوم تفسيرٌ مادي واحدٌ للقاعدة التي تقول أن: عدد حالات الانتحار والأمراض النفسية يتناسب تناسبًا طرديًا مع مستوى الحضارة .

ثم أيها العلماني الدنيوي المؤمن بمركزية العالم المادي! كيف تُحلل في نطاق إيمانك بغائية المادة أن: نِصْفَ الأَسِرَّة بالمستشفيات في أمريكا –أكثر دول العالم تقانة– يشغلها المصابون بالأمراض النفسية؟

كيف تُحلل حقيقة أنّ: أكبر نسبة من عدد الأطباء النفسيين في العالم كله توجد بهوليود ؟

وأكبر معدلات اكتئاب على الإطلاق تقترن حصريًا بالمقاطعات الأكثر ثراءً.

وتحتفظ دول مثل: إيطاليا وأسبانيا وبلجيكا بأعلى معدلات اكتئاب بين سكانها، لكن تأتي في المقدمة كالعادة أمريكا بأكبر نسبة اكتئاب في العالم.

North America having amajor depressive episode

Murphy JM, Laird NM, Monson RR, Sobol AM, Leighton AH. A ٤٠-year perspective on the prevalence of depression: The Stirling County Study. Archives of General Psychiatry. ٢٠٠٠;٥٧(٣):٢٠٩–١٥.

كيف تُحلل حقيقة أنْ: تنفرد الدول العلمانية عالية التقانة بأعلى معدلات انتحار على الإطلاق، بينما تحتفظ الدول الإسلامية بأدنى المعدلات على الإطلاق وتأتي دول كالسعودية وسوريا

والكويت ولبنان وعمان في آخر ذيل القائمة؟[١].

قد كانت هذه الإحصائيات مرعبة بالقدر الذي دعا روجر رويل Roger Revelle مدير مركز هارفارد للبحوث إلى إنشاء لجنة خاصة في مجلس الشيوخ الأمريكي للبحث في تأثير التكنولوجيا على الإنسان والمجتمع![٢].

لقد تبين أن مصروف جيب وغذاء وكساء ومتع مادية مكتظة ليس عزاءً كافيًا لإنسان يعلم أنه وُلد ليموت!

فقد وصلت مركزية المادة إلى مرحلة القنوط في مواجهة الأمراض الاجتماعية!

فها هي الفنون تشير في أكثر بلاد العالم رفاهةً بانكسار وحسرة إلى الضياع الإنساني والبؤس الفكري والأخلاقي والخواء النفسي المُخيف!

وها هي نتائج الأمراض الأخلاقية تؤتي ثمارها المخيفة في كل جانب

فالعلاقات غير الشرعية تتجاوز ال٥٠٪ بعد الزواج –نصف المتزوجين خونة– وتقترب من حاجز ال١٠٠٪ قبل الزواج[٣].

وتحتفظ دول الجنوب في أوربا بأقل معدلات خيانة حيث تصل نسبة الخيانة بين الأزواج في إيطاليا إلى ٣٨٪ فقط من عدد المتزوجين وفي فرنسا ٣٦٪ بحسب المصدر السابق.

وهناك مليون طفل يتم إجهاضهم –وأدهم– في أمريكا وحدها سنويًا طبقًا للوثائق الحكومية

---

(١)https://en.wikipedia.org/wiki/List_of_countries_by_suicide_rate

(٢) http://www.hup.harvard.edu/catalog.php?isbn=٩٧٨٠٦٧٤٧٩٤٨٣٢

(٣) http://news.bbc.co.uk/٢/hi/uk_news/١٧٧٣٣٣.stm

الرسمية[١].

وآلاف النساء اللاتي يُقتلن سنويًا على أيدي أزواجهن -أكثر من ١٣٠٠ امرأة تقتل في أمريكا سنويًا على يد الزوج[٢].

وأعلى دول العالم رفاهة، هي أعلى دول العالم احتقارً للمرأة: فتصنف السويد على أنها أكثر دول العالم إساءةً للمرأة[٣].

وأكثر دول العالم إباحة جنسية على الإطلاق هي أكثرها وأعلاها في معدلات الاغتصاب على الإطلاق.

وأعلى معدلات اغتصاب على الإطلاق توجد في:

فرنسا

ألمانيا

روسيا

السويد[٤].

وحالات الإجهاض في أمريكا منذ العام ١٩٧٩ إلى الآن بلغ ٥٦ مليون حالة -العدد يفوق عدد دول مجلس التعاون الخليجي الستة مجتمعةً- إنهم يدفنون شعوبًا كاملةً تحت الأقدام[٥].

وفي أوج الحضارة البريطانية والمدارس البريطانية عالية التربية والتنشئة كان الجنود

---

(١) http://www.cdc.gov/mmwr/preview/mmwrhtml/ss٥٥١١a١.htm

(٢) http://www.ncjrs.gov/pdffiles١/nij/١٩٩٧٠١_sectionI.pdf

(٣) http://www.thelocal.se/٢٠١٤٠٣٠٥/sweden-out-top-in-eu-domestic-violence-league

(٤) http://www.nationmaster.com/graph/cri_rap-crime-rapes

(٥) http://gopthedailydose.com/٢٠١٤/٠١/١٢/٥٦٦٦٢١٦٩-abortions-america-since-roe-vs-wade-١٩٧٣/

البريطانيون يستخدمون فيلقًا هنديًا كاملًا في صحراء العلمين ليُفجروا الألغام بأجسادهم إلى أن ماتوا عن آخرهم، وكانت الصور تُظهر البريطاني وهو يصعد على ظهر الهندي كي يمتطي جواده.

إذا كانت هذه المعطيات والنتائج دليلًا جازمًا وقاطعًا على خطأ التحليل المادي لغاية الوجود الإنساني، فحتمًا على الجميع أن يضع لافتة: "الطريق ليس من هنا". بشرط أن يشير سهم اللافتة إلى كوكب الأرض!

فلا تنخدع بانشغال الدهماء بالسحر المادي، فالدهماء إذا ظهرت صولة الباطل واختبئت صولة الحق تعلقوا بالوارد لظهوره وبناء حجته وجلده في الدفاع عن باطله ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ ﴾ [المنافقون:٤].

ولأصحاب الجاه والسلطان والتقدم التقاني والمادي جلبة في القلوب وهيبة في النفوس تجعل الناس تستوحش الحق مع يقينهم بصحة باطنه وكذب ظاهر وباطن الهوى ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴾ [مريم:٧٣].

فتميل العقول إلى الفريق الأعلى مقامًا والأزخم ناديًا ولو كان لا يملك من الحق شيئًا.

وما رفض قوم نوحٍ دعوته إلا بسبب قلة تابعيه وضعفهم ﴿ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴾ [الشعراء: ١١١-١١٣].

وما كان عناد فرعون إلا في هذا الباب، فقد قال الله تعالى حاكيًا قول فرعون عن موسى وأتباعه ﴿ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴾ [الشعراء:٥٤].

وأفكار الفقراء والحق الذي يحملونه عند فقراء القلوب فقراء الحق فقيرة.

ونداء الحق من الأفواه الفقيرة خافت وغير واضح ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ۖ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ [هود:٩١].

بيان انحطاط الكافر.

من أكبر المهام التي تواجه سؤال الحضارة "بيان انحطاط الكافر"، وأنه في منزلة الأنعام والدواب وإن صعد القمر وفتّت الذرّة ونقَل الصوت والصورة، فالمقياس الديني لصيغ العلاقات بين المؤمن والكافر وعقد ألوية الولاء والبراء، وبيان مركزية الآخرة واعتبار كل علوم الكافر علومًا ظاهرية هذا هو أصل سؤال الحضارة الذي يجب بيانه.

ولم ينفصل الكفر في القرآن الكريم وما يتبعه من انحطاط القيمة لمجرد عمارة الأرض أو التقدم المعرفي أو الإنساني ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا ﴾ [الروم:٩].

فعمارة الأرض لا تغني عن الإيمان والعبودية، بل لا قيمة لها أصلًا بدون الإيمان، ولو صاحَبها كل تقدمٍ ومعرفةٍ ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [غافر:٨٢].

ومَن تدّبر كتاب الله عز وجل وجد أن الإنسان إذا أعرض عن الإسلام والوحي فقَدَ تكريمه الإلهي وأصبح مهانًا منحطًا في نظر الله ونظر أهل الإيمان ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴾ [عبس:١٧].

والإنسان إذا هوى دينه فإنه يُقاد من بطنه وفرجه أكثر مما يُقاد من عقله وضميره، ويستوي في ذلك عوام الكفار وعباقرتهم.

ولو تبصّرت أحوال الكفار وسيّرهم ما تعجبت.

أنظر إلى عبقري الفيزياء في القرن العشرين ريتشارد فاينمان Richard Feynman والذي كان يُصنف ندًا لأينشتاين كيف كان حاله الأخلاقي وكيف كان عربديًا منغمسًا في الفواحش لا يخشى موتًا ولا نشورًا! [(١)].

وانظر إلى غالبية مظاهرات الغربيين وكيف أن موضوعها الأساس زيادة في التفسخ الجنسي،

---

(١) http://galileospendulum.org/١٣/٠٧/٢٠١٤/the-problem-of-richard-feynman/

ومطالبةً للتعري، بل ووصل بهم الحال إلى التظاهر وتنظيم الفاعليات الكبرى للسماح لهم بممارسة ليس الشذوذ الجنسي فهذا حالهم وديدنهم وليس تقنين أوضاع الشواذ جنسيًا فإلى ذلك اتجهت الآن أغلب دول الغرب، وإنما يطالبون بالسماح لهم بالشذوذ الجنسي مع الأطفال الصغار، راجع في ذلك تنظيم رجال يحبون الأطفال NAMBLA.

(North American Man/Boy Love) [١].

وسويسرا الآن بصدد الموافقة على مشروع السماح بزنا المحارم [٢].

وفي السويد تمت الموافقة رسميًا على الاستمناء في الأماكن العامة [٣].

وأكبر معدلات اغتصاب على الإطلاق حصرية بأكثر دول العالم تقانة –أعلاهم على الإطلاق بلجيكا وروسيا والسويد وألمانيا وكندا وتحتفظ أمريكا بالمرتبة الأولى– [٤].

وخمس مواطني الدول الغربية يمارسون نوعًا من الشذوذ الجنسي. ويطالب أكثر من أربعة

---

(١)https://en.wikipedia.org/wiki/North_American_Man/Boy_Love_Association

(٢) https://www.youtube.com/watch?v=rlH٣٣btuhdM

http://www.dailymail.co.uk/news/article-٢٤٢٤٤١٦/Swedish-court-rules-IS-legal-masturbate-public-directed-specific.html

(٣) http://www.dailymail.co.uk/news/article-٢٤٢٤٤١٦/Swedish-court-rules-IS-legal-masturbate-public-directed-specific.html

– في أحيانٍ كثيرة نتوقف عن توثيق ما هو أشد بشاعةً لما بالروابط التوثيقية من صورٍ خادشة، لكن فيما يوّثق ما يُغني عما نتغافل–

(٤) http://www.worldblaze.in/top-١٠-countries-with-highest-rape-crime-in-the-world-٢٠١٥/

أخماس المجتمع الغربي بحرية ممارسة الشذوذ الجنسي[١].

وعدد حالات الإجهاض في أمريكا وحدها تصل رسميًا إلى مليون حالة إجهاض سنويًا[٢].

تخيل!

والذي يُحاور الغربيين ويعرف مأكلهم ومشربهم ومنكحهم يدرك تمامًا مدى تعلقهم بالمال ومركزية الدنيا عندهم، في مقابل الانعدام التام للتزكية الإيمانية. مما يقطع أنهم يعيشون كالدواب والأنعام لا فرق.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ﴾ [محمد:١٢].

وستتجلى الصورة التي رسمها القرآن عن شخصية الكافر بوضوحٍ.

فبسبب بعدهم عن الإيمان يلهثون في اسطبلات الملذات، ويركضون خلف كل شاذٍ وغريب، ولا يبالون بالحرام في المأكل والمنكح ولا يميزون بين الطيب والخبيث.

ولا يهتمون لحظةً بيومٍ تقشعر له الأبدان وتشيب له الولدان.

﴿لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف:١٧٩].

فلا يستغرق هؤلاء الجهلة إلا في تدبير أمر دنياهم فصارت المركزية هي مركزية الحياة الدنيا وصارت المصلحة هي مصلحة المادة، وصارت الغاية هي الدنيوية ولا غير.

فما الفرق بين مَن هذا حاله وبين الأنعام والدواب؟

﴿أَمۡ تَحۡسَبُ أَنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَسۡمَعُونَ أَوۡ يَعۡقِلُونَۚ إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان:٤٤].

فكل مَن لم يعقل غاية وجوده وعبوديته لخالقه سبحانه، ويستعد ليوم رحيله فهو جاهلٌ يحيا

---

(١) http://www.pewglobal.org/٢٠١٣/٠٦/٠٤/the-global-divide-on-homosexuality/

(٢) http://www.cdc.gov/mmwr/preview/mmwrhtml/ss٥٥١١a١.htm

كالدواب، ولو فتّت البوزونات bosons ورصد الهيجزات Higgs boson وحصد أعلى الشهادات، ولو كان ذا منجزٍ معرفيٍ مهما علا شأن منجزه أو نزعةٍ سلمية مهما كان رونقها فسيظل بميزان الوحي جاهلًا يغشاه الرجس.

﴿ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [يونس:١٠٠].

فالإعراض عن الإنصياع التام لحكم الوحي ليس له مسمىً إلا الكفر، ولا يقابل الكفر إلا البغض ﴿ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾ [الممتحنة:٤].

لكن هل كل عمل الكافر في الدنيا هباء منثور؟

يقول الشيخ عبد العزيز الزنداني حفظه الله: "الذين لا يؤمنون بالله ولا يرجون ثوابه، ولا يخافون عقابه يعملون أعمالهم وهم لا يريدون بها وجه الله، ولا يبتغون رضاه ولا يهمهم هل عملوا حلالًا أم حرامًا، فهم بهذا لا يستحقون الثواب على العمل وإن كان صالحًا، لأنهم كفارٌ لم يقصدوا به أن ينالوا ثواب ربهم، ولا ابتغوا به رضا خالقهم. والكافر مُعاقبٌ على كفره وضلاله؛ لأنه لم يبحث عن دين الله ولم يحاول الاستماع إلى البيان الإلهي الذي جاء به المرسلون، زيادةً على ذلك فهو إذا سمع آيات الله تُتلى عليه، اتخذها هزوًا، لذلك فعمله مردودٌ وهو معاقبٌ على كفره ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان:٢٣].

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴾ [إبراهيم:١٨].

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ [النور:٣٩]"[١].

إن القضية ليست فعل الخير وإنما القضية الآكد هي: لمن تفعل الخير؟

---

(١) التوحيد، عبد المجيد الزنداني، ص٩.

وهل تفعله اتفاقًا وتفعله لمصلحتك الشخصية كمزيد سعادةٍ أو تسميعٍ في الدنيا، أم انكسارًا لله ورضًا بعبوديته؟

فهذا عبد الله بن جُدعان ملأ جزيرة العرب أعمالًا إنسانيةً محضة قبل مبعث رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، لكن كل هذا لم ينفعه لأنه لم يفعل ذلك انكسارًا لله سبحانه، فكما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم في صحيح مسلم أنه: «**لا ينفعه، إنه لم يقل يومًا رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين**».

وليس لكرم حاتم الطائي وزنٌ في ميزان الله تعالى طالما لم يؤمن بنبوة محمدٍ –صلى الله عليه وسلم–، وقد جائت ابنة حاتم الطائي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تقص عليه خبر أبيها وكرمه فقال صلى الله عليه وسلم: «لو كان مسلمًا لترحمنا عليه»[١].

فكل مَن كفر بنبوة محمدٍ صلى الله عليه وسلم، واعترض على بعثة الله له فعمله من الخير مردودٌ عليه ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ ﴾ [التوبة:٥٤].

وهو مأخوذٌ بكفره ﴿فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ [التوبة:٨٠].

وليس أكفر من الذي يرد على الله وحيه ويعترض نبوة نبيه وينكر رسالته ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ [محمد:٩].

والأعمال حتى لو كانت محمودة في ذاتها، فإنها تُرد على صاحبها لفوات شرط القبول ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ﴾ [إبراهيم:١٨].

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي.

لكن إذا كان الكافر بهذا الانحطاط فما معنى تقدمه المعاصر؟

لماذا هو منتصر تقانيًا وسياسيًا وعسكريًا بما لا يخفى على متابع!؟

في البداية لابد أن نقرر أن تقدم المادة في الغرب ناتج عن أخذ بالأسباب، والعلم قرينٌ بمن يُموِّل...

فإذا نظرت إلى المعطيات التالية:

١- في العالم الإسلامي كله، هناك (٥٠٠ جامعة)

في الولايات المتحدة الأمريكية هناك (٥٧٥٨ جامعة).

٢- تنفق إسرائيل ١٣٪ من دخلها القومي على الأبحاث والتطوير

في حين تُنفق مصر ٠٠٠١, ٠٪ من دخلها القومي على الأبحاث والتطوير.

٣- ميزانية البحث العلمي في جامعة هارفارد تفوق ميزانية البحث العلمي في جميع الدول العربية بما فيها دول الخليج.

فإن النتيجة البديهية هي:

فوز ١٨٠ يهودي بجائزة نوبل -خلال ال١٠٥ سنة الماضية-

وفاز في الفترة ذاتها ٣ مسلمين بالجائزة[١].

الدروس المستفادة: البحث العلمي قرين بمن يدفع أكثر، مَن يُموِّل!

فلا تطلب أكثر لمجرد كونك مُسلم!

ولا تطلب إهلاك القرى لمجرد أنها كافرة ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود:١١٧].

---

(١)في بناء الوعي، د.خالد صقر، مركز تفكر، ص٢٢-٢٣ بتصرف.

هذه هي القضية.

فالذي يتوقع أن ننتصر بما نحن فيه من بلادةٍ فقط لأننا مسلمون، وأن يُهزم الغرب بما هم فيه من مثابرة وجدٍ فقط لأنهم كافرون هو أبعد الناس عن فهم سنن الله في كونه، وآياته في كتابه، فقد دلت نصوص الكتاب العزيز أن إهلاك الظالمين إنّما يكون بالعدل والقسط لا بالظّلم والجور ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ ﴾ [المؤمنون:٤١]، أي بالعدل لا بالظّلم.

وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ [الشعراء: ٢٠٨-٢٠٩].

فنزّه الله تعالى ذاته المقدّسة عن الظّلم ؛ لكمال عدله في أخذه وعقابه؛ فلا يصيب بعذابه إلاّ من عتا وتمرّد وظلم.

ومن أجل ذلك فقد ذهب القرطبي في تفسيره إلى أنّ الشِّرك لا يكون وحده سببًا لإهلاك الأمم حتَّى يقترن به إفسادٌ في الأرض، أو تظالمٌ بين العباد؛ لقوله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ [هود:١١٧].

هذه سنة الله في كونه، ولن تجد لسنة الله تبديلًا، ولو وعيت ما عجبت!

فسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر

والحمد لله رب العالمين

الفهرس